٢٤٧

HARLEQUIN

روايات احلام

بلا أمس... بلا غد!

ديانا هاميلتون

www.elromancia.com

مـــرمـــوريـــة

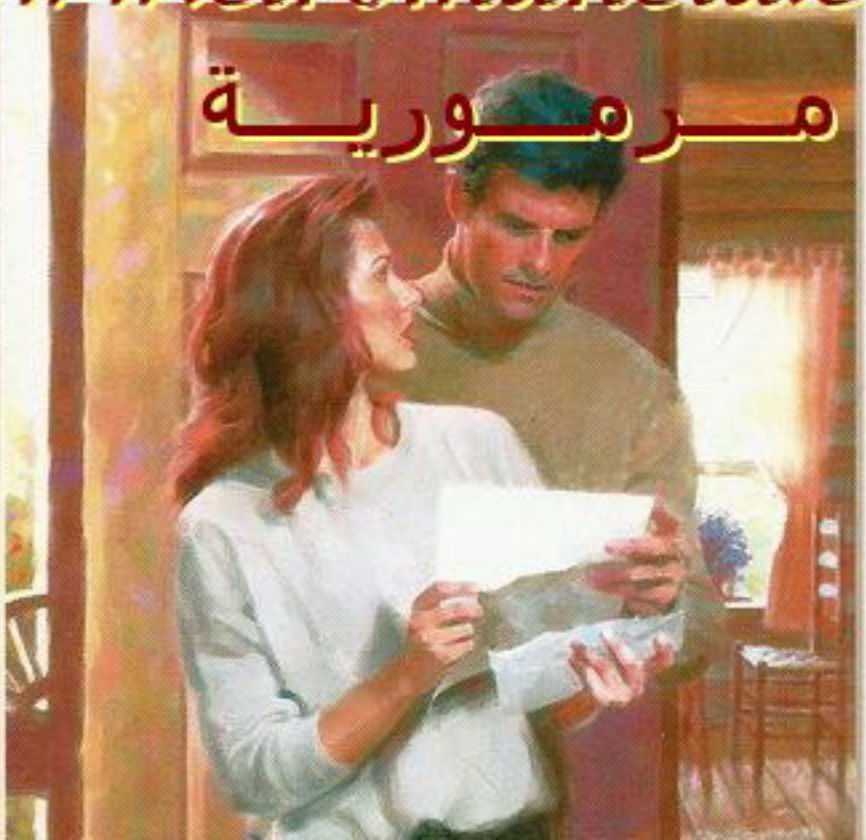

بلا أمس... بلا غد!

كانت ماتي هي الزوجة التي يحتاج إليها جايمس حقاً. فبعد الطريقة المذلة التي تخلت عنه بها خطيبة فيونا، أراد امرأة لا تعرف التحدي الأنثوي، ولا تجذبه جسدياً، ولا تريد أن تجذبه. فتاة بريئة تجهل ما يجري بين الرجال والنساء، تفكر بعقلها لا بعواطفها، ولا تهتم بزينتها وملابسها، ولا بالعلاقات الغرامية. ومن أنسب ما ماتي رفيقة الطفولة، الفأرة العزيزة، لكي تشاركه حياته؟ بشروطه هو: لا عواطف، لا علاقة زوجية... ولا أطفال!

ولكن هل ماتي هي الفتاة التي يتصورها جايمس؟ وإذا لا، فلماذا قبلت بشروطه؟

ديانا هاملتون

امرأة رومنسية بكل ما لهذه الكلمة من معنى.

وقعت في حب زوجها من النظرة الأولى، وهما يعيشان حتى اليوم معاً في «تادر هاوس»، وهو منزل أشبه بقصور الحكايات، ربّيا فيه أولادهما الثلاثة. تشاركهما المنزل ثماني قطط أنقذاها من الشارع وجرو كلب.

ورغم الحياة الصاخبة داخل المنزل اعتادت ديانا منذ أن تعلمت القراءة والكتابة، أن يكون بين يديها كتاب، إما تقرأه أو تكتبه. وهذا ما تنوي أن تفعله لسنوات طويلة بعد.

١ ـ الفأرة العزيزة

قالت داون من عمق مقعدها الدافىء: «إذن سيكون عيد ميلاد هادئاً كالعادة بالنسبة إليك.. أيتها المسكينة! يجب حقاً أن تتعلمي المرح فقد يعجبك!».

شكّل فمها الناعم الجميل تكويرة شجب وهي تلوي جسمها الجميل بإثارة. ونظرت ماتي إلى أقدم وأفضل صديقة لها، تتساءل عما إذا كانت أمها ستحبها أكثر لو أنها مثل داون، جميلة، غير متحفظة، مليئة بالحماس بدلاً من..

لكنها ما لبثت أن دفعت الفكرة عنها بخشونة. لقد انتهى كل هذا! فقد ماتت أمها منذ تسع سنوات، حين كانت في السادسة عشرة من عمرها. لا جدوى من التفكير بالماضي، فلا شيء سيعيده أو يغيره.

ابتسمت ماتي بلطف: «في حين أن منزلك سيعجّ بالناس!».

كانت تشعر باضطراب صديقتها، وتعرف السبب. مدت يدها تلتقط النظارة ونظرت إلى كتاب الطبخ. سيكون منزل القسيس القديم الواقع في الجانب الآخر من قرية سوسكس بمثابة قطب جاذب للعائلة الكبيرة السعيدة، من سلالة والدي داون.. وسيمتلىء ذلك المنزل الفسيح بالأولاد والأحفاد، والحب والضحكات، على عكس هذا المنزل الفخم الذي تعيش فيه مع والدها الأرمل.

وقالت داون توافقها الرأي بارتياح: «سيصل فريق الصيد بأكمله،

www.elromancia.com

بالإضافة إلى فرانك وأبويه عند أمسية الميلاد. وأنت مدعوة على الغداء يوم الميلاد. أحضري والدك معك! مع غياب السيدة فلاكس سيوفر هذا عليك الطبخ.. لن أقبل اعتذارك، فأنا لا أستطيع الانتظار لأقدم خطيبي الجديد لأفضل صديقة لي».

وضعت ماتي الطحين في ميزان المطبخ: «آسفة، لا أستطيع تلبية الدعوة لأن جايمس سيمضي الإجازة هنا.. لقد اتصل هذا الصباح ودعى نفسه».

شعرت بغصّة وهي تنطق باسمه. لا بد أنّ هناك خطب ما، وإلا لكانت خططه للميلاد أكثر سحراً ورومانسية، من تمضية بضعة أيام هادئة في الريف.

ـ أعرف أنك ستدعينه أيضاً، لكنني لا أعتقد أنه سيرغب بحضور أي حفل في هذه الظروف..

ووضعت ماتي الدقيق في الخلاط مما جعل سحابة الدقيق تصل حتى السقف، وتوقعت أن تصرّ عليها داون. إلاّ أن داون لم تصر، بل تحركت في كرسيها تريح مرفقيها على ذراع المقعد. وبعد أن أحاطت ذقنها بيديها، قالت: «أتراه سيمضي فترة الأعياد في البكاء على الأطلال؟».

ـ لا أظن أنّ جايمس يعرف كيف يبكي!

بدت لهجة ماتي واقعية. فخلال السنوات التي عرفت فيها ابن شريك أبيها والسنوات التي تلت موت والده، لم تره يوماً يرضخ للظروف. كان دائماً واثقاً من نفسه، متماسكاً تماماً، متباعداً أحياناً بشكل مخيف، كما لو أنّه يعيش في عالم ناءٍ يصعب الوصول إليه.

لكنه الآن يتألم على ما يبدو، بعد أن نبذته علناً المرأة التي كان ينوي الزواج بها. لا بد أنه خاض تجربة مؤلمة. لكن بما أنّها تعرفه

جيداً، فهي متأكدة أنه لن يُظهر شيئاً.

قالت داون: «حسناً، لن يكشف مشاعره علناً. لكن مع موت والديه، بتّ أنت ووالدك أشبه بعائلة له. لذا، يمكن أن يبكي على كتفك. وأعتقد أنّ كبرياءه تلقت ضربة قوية، بسبب الإشاعات التي نشرتها الصحف. فبعد أن تلقت الصحف خبر زواجه من الحسناء فيونا كامبل ـ بلير، عادت هذه الصحف وقالت إن صاحبة السعادة ألغت الزواج، بعد أن اكتشفت أن جايمس لم يتناسب وتوقعاتها الرفيعة المقام... لا بد أنه يشعر بالضيق إزاء ذلك!».

فردت ماتي متوترة: «على الأرجح».

وتمنت لو تتوقف صديقتها عن التحدث بهذا الموضوع.. فهي لا تقوى على التفكير بأن جايمس يتألم، ورغبت في أن تمسك عنق فيونا الأنيق بين يديها، وتخنقها! فهي لا يسعها أن تتصور، أن تنبذ أي امرأة رجلاً ذا رجولة صارخة جذابة، مثل جايمس كارتر.

ـ اسمعي.. لماذا لا تحضرين لنا القهوة؟.

أرادت قول أي شيء يوقف هذه الثرثرة. ونظرت مرة أخرى إلى كتاب وصفات الطعام، وهي تدعك الزبدة بالدقيق.

ـ أحاول أن أصنع قطعاً صغيرة من الكعك! ليت السيدة فلاكس لم تأخذ فرصتها السنوية الآن!

طلبت مدبرة المنزل فرصة سنوية تمضيها مع شقيقتها وحصلت على الموافقة فوراً. في الواقع، لم يحب والد ماتي يوماً موسم الاحتفالات، لا سيما بعد رحيل زوجته. لذا كان هو وماتي يميلان إلى اعتبار الميلاد يوماً عادياً.. لكن مع توقع وصول جايمس، أصرت ماتي على تحضير المأدبة التي تليق بالمناسبة، على الرغم من أن هذا يتناقض مع مبدئها.

وقفت داون فجأة وقالت: «اعتبري هذا منتهياً!».

ثم تقدمت نحو الطاولة، تنظر إلى الوصفة التي تعدّها ماتي، وقالت تنصحها: «يقولون هنا: أضيفي الماء، لكن قد تحصلين على نتيجة أفضل بكثير إن استخدمت البيض المخفوق.. هل تريدين أن أتولى الأمر عنك؟ فأنا أساعد أمي في الطهو منذ ولدت! وأنت لست سوى طباخة أكاديمية ذكية، ولكن مبتدئة على الصعيد العملي».

فردت ماتي بخفة: «إذن، حان الوقت لأصلح الأمر!».

وقاومت لئلا تحتضن وعاء الخفق إلى صدرها. وأيقنت عدم قدرتها على تقديم الكثير لجايمس، إلاّ أنها لم تستسلم، بل أصرّت في أعماقها على أن تعدّ له مأدبة تليق بالمناسبة.

ـ فلتتحملي النتيجة أو بالأحرى فلتتحمل معدة ضيفك العواقب!

قطبت ماتي حاجبيها بقلق، بينما استدارت صديقتها لتملأ غلاية الماء. كانت ماتي تكبر داون بأسبوعين فقط، إلا أنها لطالما شعرت بأنها تكبرها بألف سنة.. رسخ اقتناعها هذا قول داون: «العبي أوراقك جيداً ماتي، يمكنك أن تستفيدي من الوضع الراهن!».

رمت ماتي شويك العجين، فوق رف الطعام المليء بالدقيق بعد أن ثار غضبها لسماعها تلك الكلمات.

ـ أحياناً، تتكلمين كغبية عمرها عشر سنوات!

في الواقع، ما كان جايمس كارتر ليعجب بماتيلدا ترنت.. فهو يسعى وراء النساء الجميلات، الأنيقات، ذوات الذوق الرفيع.. نساء مثل خطيبته السابقة، بارزات، وليس ممن يبهتن كورق الجدران.. ويجب أن تعرف داون ذلك وكيف لا تعرف؟

لم تنزعج داون من صد ماتي لها، بل تابعت تقول: «حسناً، كما تريدين! لكن فكري بالأمر! قبل أن أذهب للعمل في ريتشموند كنا نمضي وقتنا معاً، ما يعني أنني كنت أراه دائماً».

ومدت يدها تأخذ الكوبين من خزانة الأطباق، وتبحث عن الحليب والسكر.

ثم أكملت: «بقربك، كان يبدو وكأنه يحميك. ومن الصعب تحديد ذلك. لكن هناك دليل على العاطفة هنا! وبعد أن رمته تلك القذرة الرفيعة المقام والفارغة الدماغ، سيكون ممتناً لشخص هادىء، مخلص، ولطيف يعرفه. لقد وقعت في حبه منذ إحدى عشرة سنة، حين كنت في الرابعة عشر من العمر. أليس كذلك؟ لمَ لا تستفيدين من الوضع الراهن؟».

شعرت ماتي وكأن الدم يغلي في عروقها. لم تكتفِ داون بدس سكين بين ضلوعها، بل ها هي تمرح بتعميق جرحها!

ضاقت عينا ماتي الذهبيتان، وصاحت بحدة: «لقد أغرمت بجايمس في الوقت ذاته الذي وقعت فيه أنت في «غرام» أستاذ العلوم الطبيعية، ألا تذكرين؟ ولكن هذا في مرحلة المراهقة! لذا، دعك من هذا إذا سمحت؟».

لكنها تكذب.. فهي لم تتخلص يوماً من افتتانها بجايمس.. ولطالما حاولت التخلّص من هذا الشعور، تعرف هذا! لكن مشاعرها نحو جايمس بقيت سرية لزمن طويل، ورفضت إلاّ أن تكبر لتجعلها أكثر افتتاناً به.

نزل جايمس من خلف عجلة القيادة وأقفل السيارة، ثم وضع المفتاح في جيبه.. كانت ملايين النجوم تزين سماء الليل الشتوي، والهواء المثلج يخز رئتيه. أخذ نفساً عميقاً وشعر أنه يسترخي، بالرغم من الفوضى المعذبة التي تمر فيها حياته. كما شعر بسحر ليلة الميلاد، وبدا ذلك غريباً.

كانت الأنوار تتسرّب من النافذتين المسدلتي الستائر، «بيرينغتون

هاوس» يغرق في ظلام دامس. تردد جايمس في قضاء فترة الأعياد هنا، لكنه أيقن أنّه كان على صواب في قراره هذا، حين توقف في ساحة المنزل.

هذا ما كان يحتاج إليه، بعد الدراما الفوضوية التي حصلت في الأسبوع الماضي. فهو لا يزال يشعر بمرارة ذلك المشهد النهائي بينه وبين المرأة التي كان ينوي الزواج بها. وهز كتفيه من دون وعي، والتوى فمه بسخرية.. إنه يفهم لماذا لجأت فيونا إلى الصحافة، مع أنه يكره الطريقة التي لجأت إليها في التصريح علناً عن انفصالهما.

شعر بحاجة لأن يرمي كل الإذلال والحادثة المؤلمة وراء ظهره، وبدا له هذا المنزل المكان الملائم للقيام بذلك.

فلطالما مثل هذا المنزل منزله الثاني. فقد كان ووالده يفضلان حديث الأعمال حول عشاء متمدن أو تمضية عطلة أسبوع طويلة مع صاحب هذا المنزل ادوارد ترنت الشريك في امبراطورية البناء التي أصبحت كبيرة جداً الآن.

ولم يكن المنزل بحد ذاته ما دفعه للقيام بهذا الخيار، ولا رؤية شريك والده، بل ماتي. فوجودها المتفهم هو ما يحتاج إليه بالضبط.

وقطب جبينه إذ راودته هذه الفكرة، فقد تعلم الاكتفاء الذاتي في سن مبكرة. لكن ذكاءها المؤثر يحركه، وتعقّلها يهدئه، ونقاط ضعفها تسليه بلطف. فقد أخذت وقتاً طويلاً لتتعلم كيف تستخدم الطابعة الالكترونية التي أقنعها بامتلاكها، وخاضت ثماني محاولات فاشلة للنجاح في فحص القيادة.. ولا تزال حتى اليوم أسوأ سائق سيارة عرفه.

أضف إلى ذلك نقص أناقتها الأنثوية.. فهي أقل النساء إحساساً بأهمية الملابس، وأقلهن وعياً للعلاقات الغرامية.

عرف أن هذا ما يحتاج إليه حقاً. رفقة امرأة لا تعرف التحدي الأنثوي، ولا تجذبه جسدياً، ولا تريد أن تجذبه.

فأرة! ولان فمه القاسي... الفأرة العزيزة القديمة.

شد قبضته على حقيبته وسار فوق الحصى المرصوف جيداً متوجهاً نحو الباب الرئيسي. أخذ يتساءل عما إذا كانت لا تزال تحاول ترجمة ذلك الكتاب العلمي الضخم من الألمانية إلى الإيطالية أو إلى أي لغة، وعما إذا نفضت عنه الغبار لتعطيه إلى الناشر الذي يهتم به، أم أنها وضعته بعيداً بأمان.

كان واثقاً أن الاحتمال الأخير هو الأرجح، فهو يعرف ماتي.. في الواقع، لم تكن بحاجة إلى أن تعمل لا سيّما أن وضعها المادي جيّد. لكن ما إن يكون لديها مشروع، حتى تنكب عليه ولا تظهر قبل إكماله. وما أن ترد على قرع جرس الباب، سيسألها عن مشروعها هذا.

لكن شريكه هو الذي فتح الباب.. وهو رجل في الستين من العمر، ذو وجه جذاب، وشعر رمادي، وعينين تنمان عن الحرج.

لم يكن ادوارد ترنت ممّن يعبرون عن مشاعرهم، وكذلك كان جايمس. ولعل هذا هو سر نجاح الشراكة التي تجمع بينهما.

قال جايمس وهو يخطو فوق العتبة: «أشكرك على الغرفة التي ستمنحني إيّاها ليوم أو يومين.. شعرت بحاجة للمجيء إلى هنا، لكنني لن أضجرك بالتفاصيل. لذا أقترح أن تضع موضوع أخبار خطوبتي المحطمة بعيداً».

أطلق ادوارد تنهيدة ارتياح: «حسناً! قبل أن نغفل ذكر الأمر، أهنئك على انفصالكما. فمع أننا ماتي وأنا لم نلتقِ بها سوى مرة، إلا أننا متفقين على أنها لا تناسبك. فعلى الرغم من نسبها الرفيع وجمالها، فهي امرأة أنانية، سطحية وقاسية، وما كان زواجكما

لينجح. علاوة على ذلك، نحن بحاجة إليك في الشركة لا سيّما أنّك تمسك الآن بزمامها. والأن، هلا انضممت إليّ لتناول الشراب، أم أنك تفضل الذهاب إلى غرفتك؟

ـ لا بل سأحتسي شراباً!

بدا جايمس متوتراً وأحس بضغط دمه يرتفع، ورمى حقيبته عند أسفل السلم العريض، ولحق بمضيفه إلى غرفة الجلوس النظيفة التي تحوي القليل من الأثاث.

إذن، هذا رأيّ ماتي بفيونا؟ علام استندت في حكمها هذا بحق السماء! فابنة شريكه فتاة لا تعيش في عالم الواقع، بل تتمسك ببرجها العاجي مخصصة كل وقتها لعملها. فتاة بريئة تجهل ما يجري بين الناضجين من الرجال والنساء ولا يحق لها أن تطلق أحكاماً!

وحسبما يعرف عنها، لم تخض يوماً تجربة عاطفية؛ فكيف لها أن تفهم توق الرجل لامتلاك امرأة جميلة، مثيرة مثل فيونا المنفتحة على هذا العالم؟ كيف لها أن تفهم رغبته في أن تشاركه هذه المرأة فراشه، وتزين مائدته في دعوات عشاء العمل، وتدير منزله وبرنامج حياته الاجتماعية بشكل واعٍ ودقيق؟

أرغم جايمس نفسه على الابتسام بعد أن قطبت الأفكار التي راودته جبينه، وتناول العصير الذي قدمه له ادوارد. ثم غاص في أحد المقاعد القاسية المرتبة حول طاولة ثلاثية القوائم من طراز «شابندال»، وسأل: «أين ماتي؟».

لم يكن غضبه من ماتي مبرراً، فهو لم يغتظ من ادوارد الذي عبّر عن الرأي ذاته.. لا بد أن أحداث الأسبوع المنصرم قد أثرت عليه أكثر مما يدرك.

رد ادوارد: «تتخبط في المطبخ.. ففي غياب السيدة فلاكس،

أخشى أن يتحوّل الأمر إلى مجرد حظ.. فماتيلدا تضيع في كل ما هو خارج نطاق عملها».

شرب جايمس جرعة من العصير. مسكينة ماتي! لقد فرض نفسه عليهما ويعرف جيداً أنهما من دونه سيدبران أمرهما بقطعة خبز وجبن، أو أي طعام إلى أن تعود مدبرة المنزل.. لكنه لن يسمح لماتي بأن توتر أعصابها بسببه. ففي اليومين القادمين، سيساعدها وسيتشاركان الحمل. وأدهشه هذا القرار لكنه قطع وعداً على نفسه بالالتزام به.

كانت ماتي في غرفة نومها تنظر باكتئاب إلى صورتها في المرآة، حين سمعت صوت جايمس. وبدت مرتبكة حين أدركت أن بنطلونها الجينز وقميصها، قد عانيا من عملها من دون نجاح كبير في المطبخ. ولم يقتصر بها الأمر على ذلك، بل قصدت أيضاً الغابة، بحثاً عن شجرة تزين بها غرفة الطعام بهذه المناسبة.

لكن مظهرها لم يبدُ أفضل في التنورة البنية الناعمة والكنزة بلون جلد الغزال، اللّتين ارتدتهما.. كان شعرها الكستنائي لا يزال مبللاً من الدوش السريع الذي أخذته، وقد بدا أسود اللون بعد أن عقدته إلى الخلف.

أما بشرتها فكانت شاحبة جداً، ولا شيء تستطيع أن تفعله حول لون عينيها الأصفر الغريب.

استدارت عن المرآة مقطبة، وجمعت ثيابها التي تخلصت منها لتضعها للغسيل.. لا جدوى من استخدام وسائل التبرج، فهي تعرف أنها بشعة. ولن يغيّر تأملها لنفسها في المرآة هذا الواقع ولطالما عرفت هذا. ولن يبدّل تحديقها بأنفها الملفت للنظر، أو فكها المتسع جداً أو فمها المكتنز كثيراً من شكلها!

ومهما فعلت، ستظلّ بنظر جايمس الفأرة. كان يناديها هكذا أحياناً

ولن يلاحظ جايمس لو قدمت العشاء وهي ترتدي كيساً. فأرة.. ويراها كذلك، شيئاً صغيراً، هادئاً، رمادياً، غير مميز، وتعرف كل هذا.. أليس كذلك؟ ولقد تقبلت الحقيقة الجارحة منذ سنوات..

وبخت نفسها بحدة: تماسكي! إذ لم يقم جايمس يوماً بأي خطوة ليشجع ما تشعر به نحوه. لم يعِ يوماً الأحاسيس العميقة التي تكنّها له. أحاسيس عميقة إلى حد أنها لم تعجب بأحد غيره يوماً.

وبدلاً من الرثاء على المستحيل، عليها أن تنزل إلى الأسفل وتحاول بطريقتها الهادئة أن تقدم له اللطف والتفهم لليومين القادمين؛ وأن تأمل فعل ما يساعده على تخفيف عذاب قلبه المحطم.

وهكذا داست على مشاعرها، وأسرعت تنزل السلم.

قال جايمس من دون تردد في الصباح التالي: «بالطبع سأساعدك في تحضير الغداء، فأنا لا أتوقع أن يخدمني أحد.. إضافة إلى هذا، ما من أحد منا حضّر غداء ميلاد كامل من قبل.. وقد تكون النتائج مثيرة للحرج».

عضت ماتي شفتها السفلى بقسوة.. هل يجب أن يبدو رائعاً هكذا؟ هل يجب أن تتشنج من الداخل كلما كان قريباً منها؟

كان يرتدي بنطلوناً رمادياً ضيقاً وكنزة سوداء، مما جعله يبدو وسيماً.. وكان طويل القامة. أما شكل جسمه الرياضي، وعيناه الرماديتان وجفناه الثقيلان، ورموشه الكثيفة السوداء كشعره فخلقت مزيجاً ساحراً.

وبّخت نفسها على أفكارها هذه، وقالت: «إذا كنت تخشى تكرار ما جرى في الأمس، فلا داعي».

لقد كان الطعام كارثة. فالفطير مليء بالماء، والسلطة غير نظيفة، وفطائر اللحم المفروم لا تصلح للأكل وكأنها قطع «اسفلت» مجمدة.

ارتدت ماتي إحدى مريلات السيدة فلاكس القطنية التي كادت تلفها، وأخرجت نظارتها من أحد الجيوب، ووضعتها على أنفها؛ فبدت كمن يشارك في مباراة أسوأ ثياب العام. لكنها عرفت أنّها مهما ارتدت لن تلفت انتباهه.

لطالما كان لطيفاً معها، مع أنه مشهور بالقسوة في أعماله. وكانت تعتقد أحياناً أنه يجدها بالفعل مسلية، ويبدو في أوقات أخرى وكأنه لا يراها.. وكأنّه ينظر عبرها لا إليها.

أخذت نفساً عميقاً، وقالت تشرح: «الواقع أنني ذعرت، وقمت بكل شيء بطريقة خاطئة. ولأن السيدة فلاكس تطهو عادة، لم أتعلم شيئاً! لكن هذا لا يعني أنني لا أستطيع! فالمسألة مسألة منطق. وقد جلست ليلة أمس ووضعت لائحة وقرأت كتب الطبخ، حاولت...».

أدركت أن عينيه الرائعتين ترسلان لمعاناً فضياً متراقصاً نحوها فصمتت، ثم أضافت بحدة: «لقد خططت للعملية كلها.. حتى آخر قطعة خضار مجمدة».

ترك هذا العمل دوائر سوداء حول عينيها، لكنه على الأقل، أبعد دماغها عن التفكير في أنه ينام تحت سقف واحد معها، أو لا ينام من جراء الصدمة العاطفيّة التي تلقاها.

وأكملت: «أنا واثقة من أن قضاء الصباح برفقة أبي سيكون مفيداً بالنسبة إليك. أعرف أنه متشوق لمناقشة مسألة تمويل مشروع الفنادق في إسبانيا.. أو في إيطاليا؟».

ـ إسبانيا.. لكن مناقشة هذا المشروع تحتمل الانتظار!

وبدت جدية جداً بشعرها المعقود إلى الخلف، ووجهها الصغير غير الجميل، ونظاراتها المنزلقة إلى أسفل أنفها الصغير، وعينيها الذهبيتين الجادتين. حاولت استجماع أفكارها لتركّز على المشكلة

الموجودة أمامها.

ـ على أي حال، سأحاول القيام بما أستطيع! أقشّر البطاطس، أحضر القهوة، وأمسح جبينك المحموم.. وأعدك أنني سوف أستمتع بالعمل، بصحبتك.

وهو على حق. فلطالما كانت صحبة ماتي مريحة بالنسبة إليه، وهو يراها منغمسة في عملية غريبة عنها. فشكل حاجبيها المعقودين ولسانها الزهري المطل من زاوية فمها، مسلٍّ بالنسبة إلى جايمس. لعلها تسليه، وتخرجه من محنته.

تظاهرت ماتي بأنها تتفحص اللائحة الطويلة التي تركتها على الطاولة السميكة: «إذا كان هذا ما تريده حقاً!».

لن يستمتع بهذا، وسيعرف أن غداء الميلاد الضخم الذي تركته السيدة فلاكس في الثلاجة، كان ليبقى في مكانه لو لم يدعُ نفسه.

لم تصدق أن جايمس يتمتع حقاً بوجوده معها، فهي لا تنغمس في الأوهام. ولكن وجوده أمامها، بهذا المزاج اللطيف، أمر خطير.

كما سيهدّد هذا توازنها طوال العطلة. لكنه كان ينطوي أحياناً على نفسه، مما جعل ماتي تعتقد بأنه يفكّر بحبّه الضائع..

خرج والد ماتي ليتمشى، متذمراً أنه أكثر من الطعام. وقال: «لقد جعلتنا نفخر بك ماتي..».

وأضاف بعد لحظة صمت:

ـ لكن، نشكر الله لحضور جايمس، فلولا حضوره لتسببت بكارثة أخرى.

فتضايقت ماتي... لقد عملت جاهدة لتحوّل بعض المكونات إلى وجبات معقولة، وتستحق بعض الإطراء.. فكرت بهذا متجهمة وهي تمرر المكنسة الكهربائية في المنزل، لتعيدها بعد ذلك إلى خزانتها في

المطبخ.

ـ هل أنت مستعد للذهاب؟

بدت هادئة متعقلة، لكنها كانت مضطربة في قرارة نفسها.. سوف تشتاق إليه كثيراً وقد لا تراه مجدداً، قبل أشهر.

ليلة أمس، سمعت والدها يقول له إن عليه أن يسافر إلى المكتب الرئيسي في لندن ليناقش أمر تمويل المشروع الإسباني مع محاسب الشركة. لهذا، لن يمر من هنا في المستقبل القريب.

أقفل الباب خلفه واستند إليه وذراعاه مطويتان على صدره، وكأنه يسد طريق خروجها..

ونظرت ماتي إليه، فوجدته وسيماً. لم يقلل الجينز الباهت القديم والسترة الجلدية القديمة من أناقة جسمه الرشيق القوي. وأشاحت بنظرها عنه بسرعة.

عليها حقاً أن تتوقف عن التفكير فيه. لقد تمكنت من دفن مشاعرها نحوه سنوات عديدة.. ويمكنها القيام بهذا مجدداً..

أغلقت باب خزانة المطبخ، واستدارت مجدداً لتواجهه وهي تملس أطراف مريلتها المستعارة.

ـ هل تريد أن تشرب القهوة قبل أن تغادر؟

هذا أفضل.. وابتلعت الغصة المؤلمة في صدرها، التي ستجعل الكلام مستحيلاً.. وعادت إلى هدوئها مجدداً.

سار نحوها وفي عينيه الفضيتين تصميم ما: «أريد أن أطرح عليك سؤالاً. لكن لا تغضبي بسرعة، بل فكري جيداً!».

ووقف على مقربة منها، مبتسماً مرتبكاً مما سيطرحه عليها. وارتسم على وجهه عبوس محتار تعرفه جيداً، إذ لاحظته ليلة البارحة، بعد نقاشه مع ادوارد. إنها فكرة عملية معقولة، وهو يعرف ماتي تماماً.

ما إن تعتاد على الفكرة حتى تجدها معقولة.

قال بصوت يخلو من الانفعال: «ماتي.. هل تتزوجيني؟».

* * *

٢ ـ عرض وطلب

ذهلت ماتي لسماعها كلماته، وشعرت بالدم يندفع فجأة إلى رأسها، وبغليان في داخلها.

جايمس يطلب يدها؟ يدها هي؟

ـ ماتي؟

لكنها ذكية بما يكفي لتفهم أنها مجرد مزحة. إذن هذه هي المسألة، مزحة.. مزحة غير مضحكة.

أوه.. كيف يجرؤ على هذا؟ ماذا سيفعل لو أخذت كلامه على محمل الجد، ورمت نفسها بين ذراعيه، مسلوبة اللب، تحلم بفساتين الزواج البيضاء، والأولاد؟

استفاقت فجأة من ذهولها، واتجهت نحو الصنبور تملأ غلاية الماء. باتت بحاجة الآن إلى القهوة! وقالت: «كن حذراً جايمس! فمزاح كهذا يمكن أن يرتد عليك، وقد يأخذه أحدهم على محمل الجد».

فأجابها مباشرة: «أنا أعني ما أقول يا ماتي!».

وجمدت، تصلب كل شيء في داخلها. هذا مستحيل! كيف يمكن أن يعني ما يقول؟

رفع يديه، وأمسك بكتفيها يديرها لتواجهه فشعرت بالدم يغلي في عروقها للمسته.. لكنها أبعدت يديه عنها، فهو لم يلمسها من قبل،

www.elromancia.com

ولا حتى صدفة! وبقدر ما كانت تتشوق لأيّ لمسة، بقدر ما شعرت أنها غير قادرة على التعامل معها.. على الأقل الآن، قبل أن تعرف خطته.

- هل لهذا علاقة بنبذ فيونا لك؟ لقد رفضتك، لذلك تحاول أن تخطب امرأة أخرى لتريها أنها ليست الوحيدة؟.

واعتصر قلبها بألم.. هل هي على حق؟ هل يمكن أن يكون قاسي القلب إلى هذا الحد؟ هل يمكن أن يستغلها هكذا، لينتقم من المرأة التي أحبها؟ هل سيشتري لها خاتم خطوبة براق ليتسرّب الخبر إلى العلن ثم وبهدوء، يلغي كل شيء بعد أن ينجلي غبار نبذ فيونا العلني له؟

وتابعت: «حسناً، لم تجبني. ألا تملك، كالعادة، رداً متحذلقاً؟».

ودفعها صمته الكئيب إلى السخرية.

- أم أنك فجأة وقعت في حبي؟

نظر جايمس إلى ساعته الرولكس. كان ينوي قضاء بعد الظهر في شقته، يراجع كومة أوراق مكتبية. لكن هذا سيستغرق وقتاً أطول مما يظن.

- إنك تقللين من قيمتك يا ماتي.. يجب أن تتخلصي من هذه العادة! أما بالنسبة إلى ما أكنّه نحوك، فأنا لست واقعاً بجنون في الحب. فهذه الحالة لا وجود لها أصلاً!

لقد كان متفائلاً حين تصور أنه قادر على شرح أسبابه للزواج في دقيقتين، وسيلزمها ثلاث أو أربع دقائق على ما يبدو ليتقبل دماغها الفكرة.

- كل ما أطلبه منك، هو أن تستمعي إلى ما أريد أن أقوله، وأن تخلعي عنك...

صوت ادوارد في الغرفة الصغيرة الملحقة بالمطبخ، جعله يقطع كلامه.. اللعنة! لم يتوقع أن يعود شريكه بهذه السرعة. لقد خطط لهذا كنقاش عملي متعقل، ينتهي بعد بضع دقائق.. وها هو ينقلب بسرعة إلى مهزلة.

نظر إلى الرجل الأكبر سناً بوجه متجهم وعينين ضيقتين، وهو يدخل المطبخ نافخاً في كفيه، ووجهه محمرّ من السير في الهواء القارس.

قال ادوارد: «إذن، قررت البقاء للغداء؟ ظننتك في طريقك الآن.. وماتي، إذا كنت تطبخين، احسبي حسابي، فأنا أشعر بالتخمة».

- في الواقع.. سأصطحب ماتي إلى الغداء، تعبيراً مني عن امتناني لكل جهد قامت به خلال الأيام القليلة الماضية.

ثم التفت نحو ماتي، وقال لها: «اذهبي وأحضري معطفك».

ودّت أن تقول له ألاّ يعطيها أوامره بهذا الصوت المتصلب السلطوي، وكأنها موظفة لديه، بل أن يطلب منها بلطف، وستفكر بالأمر. لكنها سيطرت على مشاعرها كما تفعل دائماً. لكانت حمقاء لو صرخت في وجهه، ودخلت معه في شجار. إذ سيدفعه ذلك إلى الخروج من المنزل مباشرة من دون أن تعرف سبب طلب الزواج.

أرسلت نبرته الرجفة في جسدها. لقد سمعت أنه لا يستهان به، رجل لا يجرؤ سوى الأحمق الأبله على إغضابه.. لكنها، لم تخف منه أبداً، ولم تشعر يوماً أنه يسيطر على حياتها.

انسحبت من الغرفة، قبل أن يقول أو يفعل أي شيء آخر، يزيد من اضطرابها.

بالطبع ليست خائفة منه. وخلعت مريلة السيدة فلاكس، ثم أخذت

تبحث في خزانة الردهة عن معطفها العملي الواقي من المطر. . وقد بدت مضطربة، مشوّشة الأفكار.

دست قدميها في حذاء جلدي، ودست أسفل البنطلون في الحذاء المرتفع الساقين بأصابع مرتجفة. . سألها جايمس وهو يمسك بمفاتيح السيارة: «هل أنت جاهزة؟».

سؤاله جعلها تجفل أكثر. بدا لها نافد الصبر، ونظرت إلى فكه المشدود وإلى خط فمه الرقيق. . لكن هذا ليس نفاد صبر رجل يائس ليختلي بامرأته. لقد كان سريعاً في الرد على سؤالها الساخر. لم يقع في حبها كما لم تقع هي في حبه، كما قال.

لو أنه يعرف!

ـ أجل، أنا جاهزة! أشعر بالفضول لمعرفة ما معنى هذا كله.

كان ردها ثابتاً بما يكفي، مع أن قلبها يخفق بقوة.

ـ سأقول لك أثناء تناول الغداء.

ووضعت على رأسها قبعة صوفية زادت شحوب وجهها. . المسكينة التافهة الصغيرة!

لقد خطرت بباله هذه الفكرة، ودرسها فوجدها جيدة. وكالعادة، ينوي أن يتصرف على أساسها، من دون مواربة. لكن، لم تكن ماتي تملك أي فكرة عما يجول في رأسه.

قال بلطف: «هيا بنا نذهب!».

قاد السيارة نصف ميل إلى مقهى القرية القريب. لكن الرحلة لم تعطها الوقت الكافي لتنظم أفكارها. . جايمس يريد الزواج منها، لقد قال هذا. كانت تجد صعوبة في استيعاب كل ذلك.

منذ سنوات مضت، وقبل أن تتعلم السيطرة على أحلام اليقظة الغبية، تصورته يطلب يدها جاثياً على ركبتيه، تحت ضوء القمر،

والورود، وكل تلك الأمور. . ويقسم أنه لطالما أحبها، وأنه كان ينتظرها لتكبر.

لكن الحقيقة مختلفة دائماً عن حلم المراهقة. . أليس كذلك؟

دخلا المطعم الصغير البارد، المبني من ألواح الخشب الثقيلة. كان الموقد مشتعلاً لكن الجوّ بارد. لذا لم تخلع ماتي سترتها السميكة، لكن جايمس انتزع القبعة الصوفية عن رأسها، وهي تقرأ لائحة الطعام القصيرة.

ـ هكذا أفضل!.

ونظرت إليه عبر الطاولة، فبدا مسيطراً على نفسه تماماً. وتملكتها فجأة الرغبة في أن تصفعه.

وضعت لائحة الطعام من يدها، وقالت: «لست جائعة، أريد فقط أن تقول لي ما سبب طلبك غير الرومانسي للزواج».

اتسم صوتها بلهجة حادة. صحيح أن عرضه الزواج منها أربكها، لكنها تتعامل معه الآن. . وهذا أحد الأشياء التي تعجبه فيها، قدرتها على أن تنظر إلى مشكلة ما من كل زواياها وعلى حلّها في النهاية. .

ـ أثناء تناول الغداء، كالناس المتمدنين! اختاري طبقاً خفيفاً إذا كنت لا تشعرين بالجوع. أنا سأطلب «اللازانيا».

اختارت ماتي سندويش قريدس وشربت عصير كرز أحمر طلبه وهما ينتظران. . لكن معدتها تقلّصت حين رأت الكتلة التي من المفترض أن تكون سندويشاً بسيطاً.

مهلاً، لمَ يبدو جايمس غير متأثر أبداً؟

وضعت شوكتها من يدها: «أحذرك يا جايمس. . إذا كنت تريد، وكما أشك، أن تخطب بسرعة لتنتقم من فيونا، فانسَ الأمر. جد لنفسك شخصاً آخر تلعب معه ألاعيبك».

وضع شوكته بدوره في طبقه الذي يكاد يفرغ، وتراجع في كرسيه إلى الوراء وعيناه مسمّرتان عليها.

ـ أنتِ على حق، لكنني لم أذكر الخطوبة. فما الجدوى منها ونحن نستطيع أن نتزوج خلال ثلاثة أسابيع؟ ودعينا نترك فيونا بعيداً عن هذا.

ـ لا نستطيع فعل هذا.

هذا ما أرادته، لكنها لن تدعه يشغلها.. لن تترك نفسها تتعرض لمثل هذا الألم الكبير. فالعيش معه كزوجة له وهي تعرف أنه يتخيّلها فيونا، سيتسبب لها بألم كبير.

ذكرته بصوت أجش: «لقد أسميت الوقوع في الحب «حالة»، وقلت انك لا تعتقد أنها موجودة. أذكر إنك كنت تخرج مع نساء رائعات الجمال. لكن، فيونا وحدها جعلتك راغباً في الاستقرار والزواج. لا بد أنك أحببتها!».

وانخفض صوتها، ولان بإشفاق.. لم تشأ تذكيره بجرحه، لكن يجب أن تفعل.. وأكملت: «أستطيع تصور ألمك حين رفضتك، لكن الزواج من فتاة أخرى لن يخفف عنك الألم!».

رغبت في أن تمد يدها لتمسك يده، أن تواسيه؛ لكنه بدا بعيداً بشكل مخيف بحيث أنها لم تجرؤ على ذلك. ارتشفت كأس العصير بسرعة، ثم قالت: «حين تتجاوز محنة فيونا وتعود إلى تعقلك، ستجد نفسك ملزماً بزوجة لا يمكنك أن تحبها.. وأنا لا أريد أن أمضي حياتي، وأنا أعرف أنني المسكينة الثانية!».

فسيطر على انزعاجه بصعوبة، وقال: «أنت لم تخلقي لتكوني معذبة، ولا تعرفين عم تتكلّمين».

كانت تفكر على أساس أنه زواج عادي. لكن، لم يكن هذا ما قصده جايمس.

وأكمل: «لقد نظرت إلى أسلوب حياتي، فوجدت أنني بحاجة إلى زوجة.. كانت فيونا مناسبة جداً وجميلة، ومضيفة مكتملة من الطراز الأول.. في الواقع، ورثت عن والدي خدمات السيدة بريغز بالإضافة إلى منزلي.. وتكاد الآن تصل إلى سن التقاعد وهي جيدة لإدارة المنزل اليومية. لكن لو طلبت منها تنظيم حفل عشاء لبعض رجال الأعمال، وزوجاتهم، فستضيع حتماً. لذا بدا لي الزواج هو الحل، لكنه لم ينجح.. حسناً، لعل التجربة الأولى أغضبتني، وأبعدتني عن فكرة علاقة «الرجل والمرأة».. لذا، ما أقترحه عليك هو ما يسمى بزواج التوافق، أي زواجاً صورياً».

كانت على ثقة من أن ابتسامته تهدف للطمأنة، لكن الألم في داخلها ازداد حدة، وتلاشى بصيص الأمل الصغير الّذي لاح لها بعد كل هذه السنوات. الأمل في أن يحبها يوماً ما.

حمقاء!

سمعت صوتاً في داخلها يوبخها، وارتسمت ابتسامة باردة على شفتيها.

ـ يمكنك استخدام أحد ما.. شركة تقديم طعام مثلاً، لينظموا لك حفلات العشاء الفخمة بلمح البصر. وأنا واثقة من أنك قادر على اختيار إحدى الشابات الجميلات من اللواتي تجذبهن، كما ينجذب النحل إلى وعاء العسل، لتكون مضيفة، ولن تحتاج إلى زوجة.

فأجاب بابتسامة رقيقة: «ستكون الزوجة بمثابة رادع لهن.. وستبقى جماعة النحل بعيداً عن وعاء العسل، فأنا لم أعد مهتماً بهذه الناحية».

هذا يحل اللغز. كادت تذوب، إنه لا يزال يحب فيونا؛ ورفضها له أصابه بقسوة، وبقسوة مضاعفة لأنها الضربة الأولى. بدا متعباً،

ولاحظت ظلالاً تحت عينيه وخطوطاً مشدودة على جوانب فمه. . أرادت أن تبعد الألم عنه، وعرفت أنها لن تستطيع.

بدلاً من ذلك، قالت له بقسوة: «أستطيع أن أفهم شعورك في هذه اللحظات. لكن، صدقني، لن يدوم ما تشعر به، فالنساء يرمين أنفسهن عليك. وفي النهاية سوف تقع في الإغواء. . أنت رجل مثير جايمس كارتر».

فاجأته كلماتها، فحاول ألاّ يبتسم. بدت وكأنها تعرف عما تتكلم. . ولكن ماذا تعرف عن رغبة الجسد؟

ـ ماتي. . . لو تزوجنا، أعدك بأنني لن أخونك!

ما أسهل قطع مثل هذا الوعد، فالعلاقات الغرامية ستتسبب له بمتاعب كثيرة. صحيح أنه قرأ شكوكاً في صمتها، لكنه قادر على الالتزام به.

فجايمس، لا يتراجع عن كلامه أبداً لذا، إذا تزوجا، لن تضطر إلى التساؤل عن مكانه ومن بصحبته إذا لم يعد إلى البيت ليلاً، مع أنها لا تنوي أبداً قبول طلبه.

إنه أمر لا يمكن التفكير فيه.

شربت المزيد من العصير، وقالت: «أنت لم تفكر بهذا جيداً. . قد ترغب في إنجاب أولاد».

بدأ يستمتع بهذه المبارزة الكلامية فأجاب: «كنت في العاشرة من عمري، حين أدركت أنني مصدر إزعاج لأبوي. . فأنا أطلب منهما أشياء لا يقدران على توفيرها لي، كالوقت، الاهتمام، والحب. لذا أرسلت إلى مدرسة بعيدة وكأن الأمر مسألة «بعيد عن العين بعيد عن القلب». خلال العطلات، كان هناك الخدم ليعتنوا بإطعامي جيداً. . وإذا كان لدي ما يقلقني، أو انجازات، أو أي شيء، فهما لم يرغبا في

معرفتها. . لذا، لا، لا أريد أولاداً! فأنا لست واثقاً من أنني أستطيع الالتزام بالكامل كما يستحق الولد. لم يستطع والداي الاهتمام بي، وأخشى أن أكون قد ورثت، عنهما هذا. . لذا، لا أريد المخاطرة».

ـ أوه!

وكان هذا كل ما استطاعت ماتي قوله.

أرادت أن تخنق والديه، لكنها لن تستطيع لأنهما ميتان. . قتلا منذ سنوات، حين تحطمت الطائرة التي تقلّهما في جبال الألب الإيطالية. وأرادت أن تقول له إنها سوف تحب أي ولد منه كأثمن ما في العالم، لكنها لم تستطع. . أرادت أن تقول له إنها قادرة على أن تعطيه الحب والإخلاص اللذين حرمه منهما والداه القاسيا القلب، لكنه لا يريده. لذا لن تستطيع فعل هذا. .

وقالت بصوت ناعم جداً: «لم أكن أعرف هذا أبداً. . أعني عن طفولتك التعيسة».

لعل هذا ما يفسر حالة التحفظ والبعد التي تجعله مسيطراً على الأحداث والناس من حوله. وأكملت: «لطالما بدوت منسجماً مع والديك».

ـ هذا حين نكون معاً فقط. لقد تكّيفت منذ الصغر، وتعلمت ألاّ أظهر عاطفتي.

قطب جبينه وهو ينظر إلى ساعته، ثم أضاف:

ـ على أي حال، نحن لا نتحدث عني الآن. بل أشرح لك فقط لما لا رغبة لي في أن أكون أباً لطفل.

ـ ورضيت فيونا بهذا؟

لم يعجبه أن تتكلم عن خطيبته السابقة.

استرسلت في الحديث إلى درجة أنها أطلقت تخميناً ماكراً:

«أعتقد أنها لم تشأ إفساد جسمها الرائع بطفل يتعلق بأذيالها!».

لم يسألها جايمس إذا كانت تريد أولاداً، وما إذا ستسعدها مثل هذه العلاقة العقيمة.. في الواقع لم يفكر بمشاعرها أبداً، ولعله يظن أن لا مشاعر لها.

ـ وماذا أنال من كل هذا الترتيب المقترح، سوى تحضير حفلات العشاء؟

وندمت على استرسالها في الخيال.. فقد تتورط عاطفياً في أي لحظة، وتتفوه بأشياء تكشف عن مشاعرها الحقيقية نحوه. لذا شعرت بغصة في حلقها.

مال نحوها وساعديه على الطاولة: «ماتي، صدقيني! لو فكرت بالموضوع، ستجدين أنّه مرضٍ لكلينا. إنسي الجانب الاجتماعي! أنت ذكية بما يكفي لتعتادي بسرعة، وافعلي ما شئت.. نحن ننسجم بشكل جيد معاً، ولطالما كنا هكذا. كما أقدّر ذكاءك، وقدرتك على العمل الجاد.. أنت لست فاتنة، ولن تتلاعبي أو تعتبريني مغفلاً.. ولديك الكثير من احترام الذات.. وجودك مريح، ورفقتك مهدئة.. ستكون زوجاً جيداً. أما بالنسبة لما ستكسبين من مثل هذا الترتيب.. فستحملين اسمي، وسيكون لك حمايتي. سأضمن لك أن تأتي متطلبات عملك في الدرجة الأولى، قبل واجباتك الزوجية.. فأنا أعرف كم يعني لك هذا. وستحصلين على منزل في أفضل بقعة من لندن».

كلماته جعلتها ترتجف، فردت قائلة: «أبدو ككلب مشرد يحتاج إلى من يأويه!».

فتنهد جايمس: «ربما لم يخبرك والدك بعد، لكنه سيبيع المنزل وينتقل إلى شقة في المدينة، وسيصطحب السيدة فلاكس معه.. لقد

بدأ بإتخاذ إجراءات تسليم أسهمه في الشركة لك، ليتقاعد.. ولو تزوجنا، سيكون لك بيتك، وعمل يبقى ضمن العائلة».

إنها عاقلة بما يكفي لترى المنطق السليم في كل هذا.. لكنها شعرت برغبة في المشاكسة أكثر من أيّ يوم مضى..

وأخذ نفساً عميقاً وسألها بلطف: «وما هي المشاكل من وجهة نظرك؟ واجهي الأمر ماتي، أنت في الخامسة والعشرين، وحسبما أعرف، لم تقيمي أي علاقة.. وإذا كنت تطمحين إلى زوج وعائلة، لفعلت شيئاً في هذا الخصوص قبل الآن؛ لخرجت أكثر وأظهرت اهتماماً بما ترتدين.. وقمت بأشياء تقوم بها كل امرأة من تصفيف شعر، وتبرج.. ما الضرر إذن في أن يؤلّف شخصان معجبان ببعضهما البعض، ويحترمان بعضهما، فريقاً وشراكة ناجحة؟».

نظرت ماتي إليه بعينين متسعتين من دون تركيز.. وأحست كأن الزواج منه هو الصخرة الوحيدة التي يمكن أن تتمسك بها. إنسي حججه المنطقية وراء رغبته في السيطرة على أسهم أبيك التي تشكل ٥٠٪ من الشركة، وانسي أنه لا يحبك! كل هذا ستتمكن من التعامل معه، فقد تحلّت بالكثير من الصبر والخبرة خلال العشر السنوات المنصرمة.

لكن، ما لم تستطع تقبّله هو ذاك الإحساس بالخيانة.. فلطالما حسبت أن والدها يقدرها ويقدّر آراءها. يرى قيمتها، ويثمنها.. لكنه لم يزعج نفسه بأن يستشيرها في قراره بيع منزله العائلي، وتسليم حصته من أسهم الشركة. ولقد آلمها هذا كثيراً.

في بداية حياتها، أدركت أنها خيّبت أمل أمها.. شعر ناعم خفيف، وجه صغير بشع، وجسم هزيل.. وحين ولد أخوها الصغير الجميل، نسيت أمها وجودها. وحين مات بسبب داء السحايا، انهارت

كلياً. ولم تستعد وعيها، بل بقيت بعيدة عنها وعن أبيها إلى أن غادرتهما.

لكن ماتي تمكّنت من أن تجعل والدها فخوراً بها.. علامات جيدة في المدرسة، لا بل الأفضل. وتعلمت كيف تلتفت فقط إلى دراستها، ليكون الأفضل أفضل بكثير.

لكنها اكتشفت الآن أنه لم يكن فخوراً بها، ولم يصنفها في مقام رفيع.. فلو أنه فكر فيها، لناقش هذا القرار معها أولاً.. أليس كذلك؟

وقفت متهاوية.. وجعلها منظر وجبة الطعام التي لم تمسها تقريباً تشعر بالغثيان.

ـ أقبل الزواج بك يا جايمس! سأتزوجك جايمس.. أعلمني بالموعد والمكان، وسأكون هناك.

* * *

٣ ـ امرأة أخرى

شعرت ماتي بقشعريرة، فدست يديها في جيبي سترتها الحريرية. لم يكن هواء هذه الأمسية القارس ما جعلها تشعر بالقشعريرة، بل الخوف من شر مرتقب.

ماذا سيقول والدها حين يراها وقد غيّرت طريقتها في اللّبس والتبرّج؟

رفعت نظرها غاضبة إلى جهاز المراقبة فوق الرصيف الذي تعصف عليه الرياح، فلاحظت أن قطاره قد تأخر.. بعد أن أمضى أسبوعاً للقيام بعمل لم يحدده، اتصل الليلة الماضية، وطلب منها، في غياب السيدة فلاكس، أن تستقبله في محطة القطار.

الرحلة في السيارة إلى «لويز» كانت كابوساً، فهي تكره القيادة ليلاً، لأنها توتّر الأعصاب.. وكانت أنوار السيارات القادمة نحوها تعمي بصرها، وكلما أرادت تغيير الأضواء، أدارت المسّاحات بدلاً من ذلك.. أو، وهذا هو الأسوأ، تعطي إشارة إنعطاف من دون أن تنوي الانعطاف فعلاً.

زاد من توترها التفكير بما سيقوله والدها عن مظهرها الجديد.. هل سيعتبرها امرأة تحاول عبثاً صنع حقيبة حريرية من كيس ورقي؟ أو أنه سيعتبرها مثيرة للشفقة أو فتاة شارع؟ لا سمح الله! أم ببساطة وبكل خجل، سيجدها مثيرة للضحك.

www.elromancia.com

صحيح أن ردة فعل أبيها لن تزعجها كثيراً، لكنها ستعطيها فكرة عما قد يقوله جايمس.

وكل هذا غلطة داون!

فقد وصلت في منتصف الأسبوع الفائت، وبدت على عجلة من أمرها.

ـ لقد أخذت بضعة أيام عطلة لأساعدك يا ماتي.. يجب أن نتدبر أمرك! عشرة أيام تفصلنا عن حفل الزفاف.. وأراهن أنك لم تفكري بما سترتدينه! أين والدك؟

ـ ذهب إلى لندن لقضاء أسبوع.

ـ جيد، فنحن سنذهب إلى هناك. وبما أنه غائب، لن نضطر لإضاعة الوقت في شرح ماذا نفعل، أو طلب الإذن منه! كل ما عليك فعله هو إحضار، بطاقة الاعتماد وإقفال الأبواب.

ـ أنت مجنونة!

ـ لا.. بل أنا الجنية الحارسة أو ملاك الرحمة، وكلاهما وصف مناسب لي. سنجري تعديلاً عاماً على مظهرك، وسيعجبك هذا.. وحتى لو لم يعجبك، فأنا واثقة من أنه سيعجب جايمس.

لا.. لن يعجبه.. وثارت ماتي في سرّها.. لقد اختارني لأنني هادئة وعملية، وليس لمظهري الخارجي.

قالت بحدة: «لقد طلبني كما أنا.. بكل مساوئي».

ـ وأهنتك على لعب أوراقك جيداً! قلت لك هذا.. ألا تذكرين؟ لكن عملية تغييرك ستبدّل كل شيء. ألم أقل لك دائماً إنه بإمكانك أن تكوني رائعة، إذا فكرت بالأمر وتوقفت عن ارتداء ملابس مثل ملابس جدتك؟ والآن سأبرهن أنني كنت على حق.

ولمعت في رأسها صورة قديمة حية، صورة أمها تلبسها ثوباً

مكشكشاً، وتربط لها الشرائط في شعرها، وتقول: لست أدري لماذا أزعج نفسي.. قفي منتصبة يا فتاة وتوقفي عن العبوس! لمَ لا تكونين مثل صديقتك الصغيرة داون؟ لا أدري من أتيت بهذا المظهر البشع، ليس من عائلتي بكل تأكيد!

ولأول مرة لاح لها بصيص أمل. ماذا لو تبيّن أن رأي أمها ببشاعتها رأي خاطىء؟ هل هذا ممكن؟ قد تبدو مثيرة للاهتمام إن سمعت نصيحة أفضل صديقة لها، وتوقفت عن إرتداء تلك الملابس المحتشمة!

وبعد ثلاثة أيام قضياها في لندن، وصلت ماتي إلى المنزل في وقت متأخر، محمّلة بأكياس المشتريات، من ثياب ومستحضرات تجميل وعطور... وقد أحدث هذا خللاً كبيراً في حسابها الجاري.

والآن، ومن دون حماسة صديقتها، وطاقتها، وقوتها الدافعة.. بدأت تشك في صوابية ما فعلت.

صحيح أنها تشعر أن شعرها في حال أفضل بعد قصه إذ بدا أكثر لمعاناً وأجمل مظهراً. لكنها لم تكن واثقة على الإطلاق من الملابس التي أجبرتها على شرائها.

لم تعد تشعر أنها هي نفسها. فجايمس يريد زوجة هادئة، غير بارزة، تهتم بالحفلات التي يضطر إلى إقامتها.. وتردع النساء الأخريات عن التودد إليه، لأنه بعد مهزلة فيونا لا يريد التعاطي مع أيّ منهن.. فهل سيلغي كل شيء حين يراها هكذا؟

نظرت إلى البنطلون الضيق الجلدي بلون العاج، وإلى الحذاء المرتفع الكعبين الذي جعل ساقيها تبدوان أكثر طولاً وأناقة مما هما عليه حقاً.. وارتجفت.

وإذا ألغى الزواج، فهل سيكون هذا شيئاً سيئاً! وشقت الفكرة طريقها إلى رأسها وانطبقت فيه.

ربما بالغت في رد فعلها على إخفاء والدها خططه المستقبلية. ومن جهة أخرى، داست على سعادتها ومشاعرها وأحاسيسها، حين وافقت على مثل هذه العلاقة العقيمة مع رجل لن يحبها أبداً.

ما كان الأمر بهذه السوء لو لم تكن تحبه.. لكنها تحبه، وستحبه.

حين وصل القطار أخيراً، بحثت بين الركاب المترجلين، حتى وجدت والدها. كاد يمر من أمامها من دون أن يعرفها إلى أن لمست ذراعه وقالت بحدة: «كان بإمكانك استخدام هاتفك النقال، وإعلامي بأن قطارك سيتأخر ساعة».

كانت لا تزال مكتئبة لأنه لم يطلعها على خططه المستقبلية، حتى عندما أطلعته وجايمس على قرار زواجهما.. وبصوت مضطرب ألقت عليه التحية فبادلها إدوارد التحية.

وسرعان ما اتسعت عيناه: «ماتي! يا إلهي! لم أعرفك.. ماذا فعلت بنفسك؟».

لم يكن هذا نذير خير.. ماذا لو كانت ردة فعل جايمس مماثلة؟ صدمة غير مصدقة!

أخذ يتفحصها تحت أنوار رصيف المحطة: «ليس من عادتك لبس الألوان البراقة.. تبدين غريبة! من أين حصلت على هذه الثياب الجميلة؟».

ـ لقد ذهبت مع داون ليوم واحد، إلى لندن.

وراح يضحك.. هل تبدو مضحكة إلى هذا الحد؟ لا بد أنها كذلك، فهو لم يعلق يوماً على ما ترتديه.

ـ كان عليّ أن أعرف أنها وراء هذا.. لطالما لبست ثياباً مبهرجة، وجميلة. علاوةً على ذلك، تعجبني قصة شعرك.. لقد قصصت شيئاً منه.. أليس كذلك؟

وبدأ يسير: «دعينا نتحرك، الطقس بارد جداً هنا».

تمتمت ماتي وهي تلحق به: «بالفعل!».

إذن، لا بأس إن ارتدت ملابساً مبهرجة، لكن لو كانت جميلة فقط! وهي بالتأكيد ليست كذلك!

كانت داون قد أصرّت عليها بأن تقصد مصفف شعر من النخبة، وأن تتعلم كيف تستخدم أدوات التجميل، وأن تختار تصاميم الثياب التي تناسبها تماماً. لكن هذا الإصرار لم يجد له صدىً عند ماتي. فقد كانت الرحلة إلى لندن مضيعة للوقت والمال، وما كان عليها أن تترك داون تقنعها بأن تحول نفسها إلى شيء يختلف عن طبيعتها. وفكرت أن تضع الثياب الجديدة في مؤخرة خزانة ثيابها، وتعود إلى ارتداء الأشياء البسيطة التي اعتادت لبسها والتي تشعرها بالراحة. كما فكرت أن تتصل بجايمس، الليلة، لتقول له إنها أعادت التفكير، وتطلب إلغاء كل شيء.

وأقنعت نفسها بهذا، حين بدأت السيارة أخيراً تصعد الطريق الداخلي إلى «بيرنغتون هاوس»، ولم تستطع أن تتصور ما الذي جعلها تقبل عرضه البارد، أصلاً.

لكنها تستطيع أن تتصور، بالطبع تستطيع! ذكرت نفسها بهذا. كانت تقف في الردهة تنتظر والدها ليركن السيارة في المرآب حين أسرّ لجايمس بمشاريعه المستقبلية، وتجاهلها تماماً.

عندها أحست بأنه تخلّى عنها، فتذكرت ما عانته من أمها أيضاً.

وهذا ما جعل الزواج من جايمس يبدو كنعمة من السماء، حتى وإن لم يكن زواجاً حقيقياً.

يمكنها أن تبقى وحيدة، وتشق طريقها بنفسها، أن تسافر، أن تعمل كمدرسة خاصة. فمع مؤهلاتها يمكنها بسهولة أن تجد عملاً

كمدرسة لغة إنكليزية لأولاد إسبان أو فرنسيين، أو ألمان، أو إيطاليين. فهي ليست تلك المخلوقة الفارغة العاجزة غير العملية، كما يظنها الجميع.

قالت بينما كان والدها يقفل الباب: «أعتقد أن لديك ما تقوله لي».

فرمى حقيبته الجلدية الخفيفة أرضاً، وبدأ يخلع معطفه: «حقاً؟».

ـ أظن هذا.

سوف يسويان هذه المسألة قبل أن تتصل بجايمس لتقول له إنها لن تتزوجه. هذه الليلة ستأخذ ـ ربما لأول مرة في حياتها ـ زمام المبادرة، مع أن رفض طلب جايمس سيجعلها تشعر بالضعف والرغبة في البكاء.

قالت: «التقاعد، إعطائي أسهمك في الشركة، شقة في المدينة لك وللسيدة فلاكس... هل يحرك هذا ذاكرتك؟».

وبدا غير مرتاح: «آه، لقد قال لك جايمس إذن. لقد طلبت منه..».

قاطعته: «متى؟ بعد أن ينتقل المالكون الجدد إلى هنا وتتذكر وجودي، وأني لست قطعة أثاث غير مرغوب فيها؟ قطعةً إما أن يستخدموها أو أن يرموها في أقرب مكب للقمامة؟».

كان حوارها معه الصدمة الثانية التي يتلقاها، بعد رؤيتها بهذا المظهر الجديد في محطة القطار؛ فهو لم يعتد أن يراها تدافع عن نفسها.

ورد بصوت أجش: «الأمر ليس كذلك! اسمعي، دعينا نحضّر بعض الكاكاو! أرغب في النوم باكراً.. سأشرح لك كل شيء ونحن نشرب الكاكاو».

فتقدّمت ماتي إلى المطبخ.. ومن دون أن يقول أي كلمة، أخذ ادوارد يحضر الشراب الساخن. حين انتهى، وجد ابنته تنظر إليه

بعدائية، فقال: «اجلسي يا ماتي! لم أقصد أبداً أن أبعدك عن خططي».

ـ لمَ أبعدتني إذن؟

وجلست إلى الطاولة، وهي تضم كوب الكاكاو بين يديها.. ثم سألته: «هل توصلت إلى قرار حول الانتقال؟».

وأجبرت نفسها على أن تهدأ قليلاً، من أجله.

ـ أجل! لكن منذ ثماني وأربعين ساعة فقط، حين وجدت الشقة المثالية لي، بعد أن نصحني الطبيب بالراحة».

وسارع للتأكيد بعد أن رأى القلق في عينيها: «لا.. لا شيء يقلق. مشاكل مع ضغط الدم لكن هذا جعلني أعيد التفكير. جايمس قادر على إدارة الأعمال من دون تدخلي، وأستطيع بيع أسهمي له. لكنني أفضل أن تذهب الأسهم لك وتبقى في العائلة».

وتابع يقول: «ناقشت هذه الإمكانية معه طبعاً، أما هذا المكان الكبير، فقد تعبنا من ترتيبه منذ مدة طويلة. وحسبت حساب السيدة فلاكس، ايملي طبعاً، لكن لم أتخذ قراراً نهائياً بعد: . ستكون إدارة شقة لندن أكثر سهولة عليها.. فضلاً عن ذلك.. نتشارك أنا وإميلي اهتمامات عدة: الأوبرا، المسرح، المتاحف، المطاعم الإيطالية، وأشياء كهذه. أما أنت، فتقضين الكثير من الوقت لوحدك هنا».

وصمت قليلاً، ثم أكمل: «ثم رميت أنت وجايمس قنبلة زواجكما، فأصبحت خارج إطار خططي. وما كان مجرد أفكار غامضة أصبح أكثر صلابة. هكذا، أمضيت هذا الأسبوع في لندن أبحث عن شقة، وأقابل محامي الشركة لأرتب انتقال حصتي باسمك، ولم أذكر كل هذا لك».

وابتسمت عيناه لها: «إذاً أنا لم أتغاضى عن رأيك، بل لم أطلعك على خططي لأن شيئاً لم يتحدد في تلك المرحلة. لذا، لم أطلعك على

مشاريعي كي أجنبك عناء التفكير بما لم أعزم على القيام به، بعد».

وفتحت فمها لتقول لأبيها إنها ستلغي زواجها من جايمس، ثم أغلقته، بعد أن اشتد شيء كالعقدة في داخلها بشكل مؤلم. يجب أن يكون جايمس أول من يعرف بقرارها، وهي مدينة له بهذا! لذا استدركت الأمر وغيّرت سؤالها.

ـ إذن، هل وجدت شقة مناسبة لك ولإيملي؟

في الواقع، تعيش أيملي، أي السيّدة فلاكس، مع ماتي ووالدها منذ وفاة أمها... وكانت إيملي فلاكس أصغر من والد ماتي بستين تقريباً، أرملة قادرة، ولا تزال امرأة وسيمة، لطيفة ومهتمة، وسيكون من الرائع لو تزوجا.. فوالدها يستحق أن يكون سعيداً بعد سنوات الوحدة المظلمة.

ـ أجل، ولا تبعد سوى عشر دقائق عن منزل جايمس في «بيلغرافيا». لذا ستتمكن من رؤية بعضنا البعض كثيراً بعد زواجك.. هل التقيت جايمس في لندن؟.

ـ لا!

لا يعرف جايمس أنها ابتعدت عن بيرنغتون في الأيام القليلة الماضية. على أي حال، سوف تتفحص آلة التسجيل قبل أن تتصل به. كان الاتصال الوحيد معه منذ وافقت على الزواج منه، ليعلمها بترتيبات الزواج.. مراسم زواج مدني بسيطة، من دون ضجة، من دون شهر عسل، لأن لا جدوى منه في ظل الظروف الحالية.. وما كان هذا ليرضي غرورها، لكنه مفهوم تماماً، في وقت يعرف كلاهما أن زواجهما لن يكون حقيقياً.. وأحست بألم في قلبها للفكرة.

كان والدها على وشك أن يقف، لكنه عاد يغوص في مقعده وهو متجهم.

ـ لا أستطيع الادعاء أنني لم أبتهج، حين قال لي جايمس إنكما ستتزوجان. وأعتقد أن كل أب يفرح في تسليم ابنته إلى رجل يثق به. لكنه كان على علاقة رسمية، منذ وقت قصير بتلك المرأة الفظيعة، وبالطبع ناقشتما هذا.. لكن، هل أنت واثقة من أنه قادر على إسعادك؟

إنه قادر على إسعادها لو كان يحبها.. يمكنه أن يجعلها أسعد امرأة على الأرض، لكنه ليس كذلك.. ستجعلها هذه الخطوبة تشعر ببؤس لا يمكن وصفه! إنها تعرف هذا الآن. لكنها لن تخبر أباها بهذا، بل ستؤجله حتى الصباح بعد أن تتصل بجايمس.

وتجنبت قول شيء: «دعني أهتم أنا بهذا. لماذا لا تذهب إلى النوم؟ لقد قلت إنك بحاجة إلى النوم باكراً، والساعة قد تجاوزت العاشرة».

في الواقع، أبت ماتي أن تخبر والدها بمّا تنوي فعله، قبل أن تعلم صاحب العلاقة. سوف تتصل به وتعلمه برفضها، وتشرح له أن هذا أمر خاطىء لكليهما.. فبالرغم من كل ما قاله، هو رجل عادي، ولن يقاوم الإغراء. عاجلاً أم آجلاً، سوف يلتقي بفاتنة تجعله ينسى ما قاله، وينجرف معها بمشاعره وأحاسيسه. وإذا ما حصل هذا، سوف يشعر بالذنب، لأنه قطع وعداً لها. وعد من المستحيل أن يفي به. وسيعاني، لأنه رجل شريف. وستعاني هي كذلك، بشكل لا يحتمل.

ألقى والدها عليها تحية المساء، ثم انسحب فشعرت بالعذاب. كانت بحاجة إلى الوقت لابتلاع غصتها، ولإبعاد الأمل الغبي بأن يحبها مع الوقت فيصبح زواجهما حقيقياً.

وهذا ما لن يحدث!

قطعت الردهة إلى المكتبة وهي تفك أزرار سترتها الحريرية، وخلعتها. جعلها التفكير بما ستقوله لجايمس تشعر بالحرارة، فهي

على وشك أن ترمي شيئاً ثميناً جداً. اضطربت للفكرة واتجهت إلى المكتبة حيث الهاتف، لكن صوت الباب الرئيسي ينفتح جعلها تستدير وأجفلها صوت جايمس بعنف.

ـ إذن أنت هنا! لقد قلقت عليك، فأنت لم تردي على مكالماتي!

وسكت، فنظرت إليه ماتي ووجدته غامضاً، خطيراً، ووسيماً بشكل مغرٍ. كيف تستطيع أن تقول له إنها لن تتزوجه، وهي تحبه بكل ذرة من كيانها؟ مع ذلك يجب أن تفعل، وتعرف أن عليها أن تفعل.

كان ينظر إليها متفرساً وعيناه تنزلقان من وجهها، إلى صدرها وإلى خصرها النحيل والاستدارة الخفيفة لوركيها، وجمال ساقيها الناعمتين. راح ينظر إليها وكأنه لم يرها من قبل وكأن ما شاهده سمّره، وكأنه يستمتع بما يرى.. وبدا واضحاً من تعبير وجهه، أنه لم يجد التغيير فيها صارخاً أو مضحكاً يثير الإشفاق!

لأول مرة، كان يراها كامرأة حقيقية... امرأة مرغوبة؟

أما ماتي، فقد عدلت عن قرارها بعد أن سمّرتها جاذبيته كالعادة... لن تتركه! أوه، كيف خطرت لها هذه الأفكار الانهزامية؟

جعلت نظراته بشرتها تقشعر، وقلبها يعتصر شوقاً. إنّها تجذبه، وهذا أمل يمكن العمل عليه. ربما، قد يقع في حبها مع الوقت.

ومن دون أن يرفع عينيه عنها، دفع جايمس الباب ليغلقه... لقد بدت له ماتي، بما ترتديه، مثيرة.

اللهفة التافهة التي جاءت به مدفوعاً بالواجب إلى هنا الليلة أصبحت أكثر حدة من القلق على مصير إنسان، وتحوّلت إلى شعور لم يستطع أن يجد له اسماً.

وبدا صوته خشناً ومتهماً: «إذن.. أين كنت؟».

لم يمتنع عن طرح الأسئلة، فهي لم ترد على واحدة من مكالماته

في الأيام القليلة الماضية. واعتقد حين لم يلق صدى لإتصالاته، أن ثمة مكروه حلّ بها. لكن على ما يبدو، كانت في الخارج تتباهى بنفسها، بينما والدها ومدبرة المنزل غائبان.

وقاومت ماتي رغبتها في الرد عليه بتهوّر. لقد بدا كالزوج المرتاب الذي تتملكه الغيرة! ابتسمت ابتسامة بطيئة، ونظرت إلى الأرض.

وتقدم جايمس منها، ثم قال: «لقد تركت رسائل على المجيب الآلي، لكنك لم تردي عليها. وحين عدت هذا المساء من زيارة إلى «يورك»، قلقت.. فأين كنت؟».

جعلت ابتسامتها ضغط دمه يرتفع. فلون أحمر الشفاه الموضوع بدقة وخبرة، جعل أسنانها تبدو جميلة شديدة البياض، وفمها الشهي مغرياً.

يا للجحيم! إنها لا تهتم بمثل هذه الأمور بحسب علمه. وكانت تكتفي بوضع لطخة زهرية شاحبة حين تخرج إلى مكان ما.

بدا لها أكثر من منزعج، بل يكاد يجن! فهو لم يظهر أبداً من قبل، أي مشاعر نحوها عدا المحبة الأخوية اللطيفة أو التسلية المتسلطة. إنها تكاد تصل!

قالت بلهجة هادئة: «لا بد أن مكالمتك هذا المساء، تزامنت مع ذهابي إلى «لويز» للقاء أبي.. وقبل هذا كنت أنا وداون في لندن، نشتري أشياء لجهازي».

شكراً لله انّها كانت مشغولة جداً بمظهرها الجديد بدلاً من الاستماع إلى الرسائل، خلال الساعات الماضية. فلو فعلت هذا، لردت على مكالماته وقالت له إن الزواج ملغى.

كان على مقربة منها، مما جعل صوتها مقطوع الأنفاس وهي تقول: «أنا آسفة، لم أقصد أن أقلقك! لم يكن هناك من داعٍ لتزعج

نفسك وتنفقدني. على أيّ حال، أشكرك على ذلك! والآن تعال إلى المطبخ، سأحضر لك بعض العشاء. ستنام هنا الليلة، أليس كذلك؟».

كان الدم يجري حاراً في عروقها، والاهتياج يلوي أحشاءها، بعد أن بدأ جايمس ينظر إليها كامرأة حقيقية من لحم ودم. وشعرت، للمرة الأولى في حياتها، بالتحرر المتألق. ولحق بها جايمس وعيناه مسمرتان بشكل مزعج على ظهرها المغطى بالجلد الناعم العاجي اللون.

متى وكيف تغيرت صديقته القديمة ماتي، من مخلوقة هادئة تشبه الفأرة، مولعة بالدرس، غامضة وبريئة، إلى امرأة تجذب صاحب أي دم أحمر.

أكد لنفسه متجهماً: يجب ألاّ يكون هذا صعباً عليه! وجلس إلى طاولة المطبخ، يراقبها وهي تخفق البيض، لتحضير العجة التي عرضت عليه أن تقدمها له.

لا بد أن تلك الصديقة أقنعتها بارتداء ما يبرز جسمها الصغير، الجميل والمكتمل؛ وأجبرتها على أن تشتري ما يسمى بالجهاز.. ولكنها لا تعرف أن ما سيجمعهما هو قناعة مشتركة لا انجذاب متبادل.

ما إن تستقر ماتي في بيته، حتى تعود إلى ما كانت عليه. فبدون ضغط داون التي تعتقد أن الزواج هو سبب للتبرج والتأنق، ستدفن ماتي الطيبة أنفها في العمل وجسمها في ثوب قاتم لا شكل له كالعادة، وسيعود كل شيء إلى ما كان عليه. ولن يكون هناك من دافع يجعله يخلّ بما وعدها به.

* * *

٤ ـ دعوة صريحة

قال جايمس بعد أن كبح صوته قدر ما استطاع: «طريقة إدارتنا لزواجنا ليست من شأن أحد، بل من شأننا الخاص».

ابتسمت ماتي بحلاوة: «أجل.. أعرف هذا».

ورفعت الأغطية الفضية عن الأطباق على العربة الساخنة.

ـ لكن، فكر بالأمر جايمس! أنا واثقة أن السيدة بريغز كنز ثمين، وكتومة ومخلصة جداً.. لكنها من البشر. لقد تمكنت من طمأنتها حول موضوع غرفتينا المنفصلتين، وحين قلت لها إن هذه هي الطريقة العصرية، بدت مرتبكة قليلاً. لكنني أعتقد أنها ابتلعت المسألة.. ثم اخترت أن تقضي نهارك في المكتب.. في اليوم الأول بعد زواجنا، وأعرف أنها وجدت هذا غريباً جداً. فماذا أستطيع أن أفعل؟

ورمته مرة أخرى بتلك الابتسامة الدافئة. كان فمها قرمزياً لمّاعاً وشهياً.

ـ قلت لها إن شيئاً هاماً حدث، وللأسف اضطررت للبقاء في مكتبك طوال النهار. وطلبت منها تحضير العشاء، ودخلت غرفتي.. بعد ذلك لبست ثيابي هذه!

كانت ثيابها مثيرة، وكأنها تقدم دعوة صريحة لمن يراها! أما ياقة القميص فمفتوحة، تظهر صدراً أنيقاً، وتحتضن خصراً نحيلاً، وترسم التنورة وركين ضيقين، لتنتهي فوق الركبتين المغريتين.

لكن جايمس تمالك نفسه.

وأكملت ماتي بصوت أجش ضاجك: «هكذا، ستظن أننا نستمتع بعشاء رومانسي ولا نريد أن يزعجنا أحد.. وهذا سيضع حداً لشكوكها حول زواجنا. وكما قلت، إنها من البشر، تميل إلى الأقاويل كأي إنسان آخر».

كانت تنقل الأطباق من العربة إلى الطاولة إلى جانب نافذة تغطيها ستائر مخملية.. وكان خشب الطاولة يتجانس مع الفضة والكريستال، والمزهرية الصغيرة، والشموع.. وكانت تتحرك برشاقة، وخفّة.

هل تحرر جسدها من الألوان القاتمة التي اعتادت على ارتدائها، فباتت رشيقة؟ أم أنها أنيقة، وهو لم يلاحظ ذلك؟

ـ لطالما أردت ألاّ ينشر الناس الشائعات عنا وعن زواجنا.. أليس كذلك؟ قد يناسبنا هذا الترتيب كثيراً، لكن في ما بيننا نحن الاثنين.. وإذا عرف الناس أنه زواج صوري، فلن تستطيع رد النساء اللواتي سيرمين بأنفسهن عليك! وهذا ما لا تريده. وأنا لا أريد أن يسخر الناس مني لأنني متزوجة من رجل لا أعجبه.

لا تعجبه؟ هل تحاول إثارته؟.. هل ارتدت هذه الثياب ووضعت زينتها لتجذبه وتلفت انتباهه؟

اللعنة! أي رجل يستطيع مقاومتها؟ نظرة واحدة إليها وتكفي ليتخيّل كيف سيقترب من هذا الجمال، ليضم هذا القد الرشيق مستمتعاً.

صرّ على أسنانه، وأجبر أفكاره على الابتعاد عن هذه الطريق الخطرة. وأجبر نفسه على النظر إلى عينيها، ثم أطلق تنهيدة بطيئة، لإعادة الثقة بنفسه، نادماً بعمق على غضبه الذي لم يظهره.

هاتان العينان الذهبيتان الواسعتان البريئتان لا تبدوان وكأنهما

تحاولان إثارته، لكنها كانت على حق في ما قالته. فهي لن ترغب بأن تكون محط سخرية الآخرين، كما لا تستحق هذا. لا تدرك ماتي تأثيرها عليه.

قطع جايمس غرفة الجلوس الأنيقة، لينضم إليها على المائدة التي كانت تضع اللمسات الأخيرة عليها.

ـ إذن.. دعينا نأكل.

عليه أن يشرح لها، وبطريقة ما، ما يشعر به الرجال. وهذا أمر بديهي! فعلى الرغم من مظهرها، ما زالت ماتي تجهل كل ما يتعلق بالتصرف المثير.

ـ هلاّ سكبت العصير فأنا أفسد الأمور دائماً؟

كانت تضم إبريق العصير إلى صدرها، وقد بدت مضطربة. رفع جايمس حاجبه، ولان فمه المشدود.. إنها لا تزال ماتي غير العملية التي يعرفها والتي تعلق بها على مرّ السنين.. كيف أمكن له أن يتصور أنها تحولت فجأة إلى غاوية؟

ـ طبعاً!

مد يده ليأخذ الإبريق منها، وكانت غلطة وغلطة كبيرة! فما إن لامست أصابعه جسمها الندي، حتى شعر برجفة تجتاح جسده كله.

يا إلهي! كيف سيتمكن من الالتزام بالزواج الّذي اتفقا عليه؟!

بقيت يداه ترتجفان وهو يصب العصير، وعيناه منجذبتان إلى الذراعين النحيلتين العاريين، وهما تسكبان الطعام في الطبقين. كانت يدها الصغيرة الطويلة الأصابع تحمل طبق «البروكولي»، وابتسامة صغيرة مرتسمة على زاويتي فمها.

هز رأسه إيجاباً، وأكمل صب العصير.. لماذا لم يلحظ من قبل الغمازتين الفاتنتين على جانبي فمها؟ لأنه لم يكن ينظر إليها حقاً من

قبل! فلطالما كانت بالنسبة إليه، أشبه بقطعة أثاث قديمة! لم ينتبه يوماً لجاذبيتها، لكن داون انتبهت إلى هذه الناحية.

قالت ماتي وهما يجلسان: «السيدة بريغز طاهية رائعة.. لكن وكما قلت لي، إنها بطيئة، وأنا لا حول لي. لذا، فإن أفضل طريقة للتغلب على مشكلة إقامة حفلة كبيرة، ومن دون سابق إنذار، هي الاتصال بمختلف مؤسسات تقديم الطعام، وترتيب الأمور معهم. ويمكن لنا، أنا والسيدة بريغز، أن نتدبر أمر المائدة وأدواتها وزينتها فما رأيك؟».

ـ ماذا؟

بالكاد سمع كلمة مما قالته. فقد كان يتأمل جمالها الّذي أظهره أكثر ضوء الشموع، ووجنتيها العاليتين اللتين أبرزتا شكل فمها الجميل.

تمتم بصوت أجش: «آسف، أنا واثق من أنك تستطيعين إدارة الأمور! متى ستبدأين مشروعك الجديد؟ هل اخترت غرفة لتكون مكتباً لك؟».

وبدا مهتماً كثيراً بعملها. فما إن تنشغل بعملها، حتى تعود الأمور إلى طبيعتها. سترتدي من جديد تلك الثياب الواسعة والقاتمة التي لطالما أخفت جسدها الجميل. لن يشعر جايمس عندها بالرغبة في استكشافها، كما يشعر الآن!

ـ لا! لكنني والسيدة بريغز وضعنا الصناديق في إحدى الغرف. ولقد اتصلت بالوكالة التي كنت أعمل معها لأقول لهم إنني لن آخذ المزيد من المشاريع، ولفترة ما. أريد أن أكون زوجة لائقة لك يا جايمس!

زوجة لائقة! هل تعرف ما تقول؟

وشعر من جديد بالدم يغلي في عروقه.

تابعت ماتي: «بما أنني زوجتك، عليّ أن أرتب برنامجك الاجتماعي! وأنا لست معتادة على مثل هذا، كما تعلم. لقد كانت حياتي هادئة جداً. لكنني لن أخذلك، سأركّز كل اهتمامي على الأمر! ومن أجل المظاهر، أظن أن من الحكمة أن يشاهدنا الناس معاً، وأن نتصرّف تصرف أي زوجين متزوجين حديثاً! صحيح أن هذا الزواج ليس عادياً، لكننا لا نريد أن يشك أحد بأمره! لذا، نحتاج إلى قضاء وقت طويل معاً».

وابتسمت له مواسية: «أتريد الحلوى؟».

ـ لا! لا! شكراً لك!

بدا متفاجئاً لما قالته. يقضيان وقتاً طويلاً معاً؟ أوليس هذا سبب ذهابه إلى المكتب اليوم، ليبتعد عن الإغراء؟

ـ ماتي، ربما يجب أن يكون بيننا كلام صريح!

وبدا صوته متحشرجاً.

ـ كلانا يعرف ماذا نريد من هذا الزواج: الرفقة المريحة، لا أكثر، ولا أقل.. وسيبقى العمل ضمن العائلة بالنسبة لك.. كما سيكون لك منزل جيد، حُرية متابعة عملك، وإدارة منزلي كما ترينه مناسباً من دون أن تضطري إلى لعب دور ثانوي بين والدك وإيملي فلاكس.. وأعتقد أننا نعرف نهاية تلك الرياح، أليس كذلك؟ ستكونين بالنسبة لي زوجة تمنع عني النساء المتربصات. فكما سبق أن قلت لك، لقد سئمت منهن! سئمت من تقبيلهن، سئمت من أولئك الطفيليات اللّواتي يسعين إلى المال، سئمت من أي شيء أنثوي تحت الخمسين!

فاجأت هذه الكلمات ماتي، فوضعت ملعقتها من يدها: «لم أبلغ

الخمسين بعد!».

ـ أعرف، ولكنك لست أنثى!

ـ لست أنثى؟!

التقطت بطرف لسانها قطعة كريما صغيرة من زاوية فمها، فسرت رعشة في جسد جايمس. يا إلهي! هل يفهم الإغواء من هذه الحركة؟

ـ ما أعنيه، أنني لم أفكر بك يوماً كأنثى، بل مجرد ماتي الذكية المنكبة على الدراسة، المريحة، الهادئة، وغير المتطلبة على عكس الجنس الأنثوي. أعني...

وأسند مرفقيه إلى الطاولة، يبحث عن الوسيلة لإيصال رسالته إليها..

ـ هل حاولت أن تغريني يوماً بنظراتك؟ هل سألتني إذا كان لون أحمر الشفاه الذي تضعينه يناسبك؟ لا، بالطبع لم تفعلي!

قام بجهد جبار ليسيطر على الموقف الذي بدا وكأنه يفلت من سيطرته.

ـ اسمعي، ما أحاول قوله هو أنني لطالما اعتبرتك كأخت صغيرة!

ـ هذا، إذا فكرت بي أصلاً!

هذا رد حاد! أخذ نفساً عميقاً، لم يشأ أن يجرح مشاعرها. بالطبع لم يفكر فيها! فهو لطالما اعتبرها فأرة صغيرة تلتزم برجها العاجي وتنكبّ على كتبها، فتاة تختلف تماماً عن الاناث الرقيقات والمتألقات اللواتي كن يدخلن حياته ويخرجن منها.

أكد لها بسرعة: «طبعاً فكرت فيك! فعلى أي حال، عرفتك منذ زمن بعيد، وراقبتك تكبرين وتحصلين على شهادتك الجامعية!».

قال هذه الكلمات محاولاً ألاّ يجرح شعورها بالحقيقة. فهو لم يعتبرها يوماً أكثر من شخص لا وجود له، شخص يعيش في الظل!

ـ .. حين قتلت أمك على يد سائق أرعن، أول ما فكرت به، بعد ذهابي مع أبيك للتعرف إلى الجثة، هو أن أواسيك. أجل

ماتي، لقد فكرت بك كثيراً!

فقالت بصوت ناعم: «كنت لطيفاً جداً!».

تذكرت كل كلمة قالها لها، وكيف ضمّها بين ذراعيه. لن تنسى ذلك أبداً! وقعت في حبه عندها واستحال الافتتان الذي واكبها لسنتين إلى شيء أعمق بكثير.

قال بصوت أجش: «حسن، حسن جداً.. أنا لا أطلب الامتنان، لكنني كنت أذكرك أنني فكرت بك، كشقيقة تقريباً، كما قلت!».

وأخذ نفساً عميقاً، ثم تابع: «فكرت بك كزوجة ليس من الناحية الجسدية وكلانا يعرف ماذا يريد من هذا الزواج، وإن العلاقة الجسدية ليست جزءاً منه».

كاذب! فجلّ ما يريده الآن، هو أن يأخذها إلى الفراش. لكن هذا سيكون غلطة كبيرة، وبالأخص بالنسبة لماتي لأنها لا تريده. وما كانت لتوافق على زواج صوري، لو إنها تكنّ له أي مشاعر جسديّة.

ـ العلاقات الجسدية تشوش الأمور، وتقف عائقاً. قد تكون عظيمة طالما تدوم، لكنها لا تدوم. لا أظن أن أحداً منا يريد أن يشوش ما يربطنا، وهي شراكة مفيدة!.

دفع كرسيه عن الطاولة، وانتصب ثم قال مداعباً: «على أي حال، أنا رجل كسائر الرجال.. وطريقة لبسك مؤخراً، قد تقود إلى نوع من التعقيدات لا يريدها أي منا.. لذا، أقترح عليك أن ترتدي ما كنت ترتدينه في السابق، وأنا واثق أنك تفهمين ما أعنيه!».

يا للسماء، إنه يتصرف وكأنه الأخرق المغرور المتسلط! وربما أساء شرح الأمر! إنه يحتاج إلى حمام بارد في الحال، فهو لم يشعر يوماً أنه لا يسيطر على نفسه كما هي الحال الآن!

ـ عمت مساءً!

وأسرع إلى الباب.

خلعت ماتي الثوب الأسود، الذي أصرت داون على أنه رائع عليها، وعلقته بحذر في الخزانة مع الثياب الأخرى التي اشترتها.

أن تنفذ ما طلبه جايمس يعني ألاّ ترتدي أياً من هذه الثياب.. رأت أنه على صواب، فما تفعله خطير، وقد يؤدي إلى عواقب وخيمة!

وتذكرت كلمات داون: ماذا لديك لتخسريه؟ لا شيء! إذن إبذلي جهدك يا فتاة، وتخلصي من كل الموانع! قلت لك إنك ستكونين فاتنة لو بذلت جهداً. إذا اكتشف جايمس جمالك، فقد يتغيّر كل شيء ويغدو زواجكما طبيعياً!

وتنهدت ماتي، فكانت تنهيدة من الأعماق! لقد قالت داون إنها لن تخسر شيئاً. لكنها قد تخسر! تخسر صداقته واحترامه. وهي لا تريد أن تدفعه إلى إقامة علاقة معها، وهذا ما كان يحذرها منه طوال العشاء هذه الليلة! ما تريده هو أن يقع في حبها، وهذا أمر مختلف!

إنه جبل مرتفع من المستحيل تسلقه. ألم يقل لها حين طلب يدها إنه لا يؤمن بالحب؟

شوشت هذه الأفكار ذهنها ووترتها، فجلست في مغطس الماء الساخن بدلاً من أخذ دوش سريع. علّ مغطس الماء الساخن يريحها! ارتدت فستان نومها القطني، وأبت أن ترتدي أياً من الأثواب الحريرية المخرمة التي اشترتها مع داون.

داون.. هل ارتكبت غلطة كبيرة حين أسرت لصديقتها بكل شيء، وجعلتها تقسم على السرية الكاملة؟

منذ أقل من أسبوع، كانت مقتنعة بأنّ الشيء المتعقل الوحيد هو أن تقول لجايمس إنها لا تستطيع الزواج منه.. لكنها عدلت عن قرارها حين رمقها بتلك النظرة. نظرة أعطتها أملاً بأن يصبح زواجهما، مع

الوقت، حقيقياً..

في الصباح التالي، استيقظت بمزاج متجهم. وزاد من تجهمها معرفة أنه سافر قبل أن تحضر له الفطور. ووجدت على طاولة المطبخ رسالة جاء فيها: «ماتي، وضبي كل الملابس التي لا تحتاجين إليها في الأسبوع القادم، وسأرسل أحداً يوم الأربعاء، لينقلها إلى «بيلغرافيا».. سأكلمك قريباً!».

لم يبق ليقول لها صباح الخير! لا يعتبرها أكثر من زوجة هادئة غير متطلبة تحتل المقعد الخلفي من حياته، لرد الإناث عنه. وكيف عساها تشغل أولى اهتماماته وقد تعرّف من قبل إلى مخلوقات فاتنات مثل فيونا؟

لم تكن النظرة التي رأتها في عينيه، البارحة، نظرة الإعجاب.. فما عساها تكون؟ أتراها الدهشة لأنها ترتدي شيئاً يناسبها فعلاً، لأول مرة في حياتها؟

لقد أحست بالارتباك إزاء عرضه الزواج منها، فاتصلت بداون تطلب نصيحتها. لكنها كانت نصيحة سيئة! ما كان يجدر بها أن تصغي إليها! كان يجب أن تتصرف بما يمليه عقلها عليها!

كان عليها أن تخرج نفسها من هذه الورطة حين توفّر لها منفذ! ألا تتأمّل فالأمل لن يوصلها إلى أي مكان. أن تبعد نفسها عن رجل لا يرغب فيها لأنها لا تريد علاقة عادية خالية من الحب! فعلاقة كهذه ستحط من قدرها، إذا لم يكن يحبها! وهو لا يحبها.

ضربت ماتي الوسادة في نوبة غضب، ثم تهاوت عليها بضعف. فرّت الدموع من عينيها.. لا مجال للتراجع الآن! عليها أن تستسلم للواقع المرير الذي يعصف بها، في كنف رجل لا يرغب بها!

***

٥ ـ زوجة على الورق . . .

استغرقت ماتي في النوم إلى ما بعد العاشرة بقليل، لأنها لم تغفُ حتى ساعة متأخرة من اللّيل. أرقتها فكرة مواجهة جايمس، بعد تلك الليلة التي شعرت فيها بالحرج. لكنها، كانت واثقة من أنه غادر المنزل إلى مكتبه في المدينة، فارتدت عباءتها القديمة، وسارت متعبة نحو المطبخ سعياً وراء فنجان من القهوة السوداء، لتساعدها على البدء بالعمل.

ـ صباح الخير سيّدتي سأحضر لك الفطور في الحال. السيد جايمس في المكتبة، هل ستدعينه لتناول الفطور معك؟

خفق قلب ماتي لدى سماعها ذلك. لماذا اعتبرت رحيله من المسلمات؟ بدا من لمعان عيني مدبرة المنزل، أنها تعتقد أن سيدتها الجديدة قد أطالت النوم، بسبب ليلة من الحب المشبوب. والآن، يجب أن تواجهه! وجعلتها الفكرة تشعر بعدم الارتياح.

تمكنت ماتي من أن تُظهر ما يشبه الابتسامة، وهي تستدير على مضض لتفعل ما قيل لها. . وبدت شكوك المرأة العجوز وكأنها تبدّدت. تذكرت ماتي كلام جايمس بالأمس، حين قال لها إنه عليهما قطع دابر الشائعات والظهور أمام العالم، كعروسين جديدين سعيدين.

مع ذلك، كانت تشعر بالخجل من نفسها هذا الصباح. فإذا سلكا هذا السبيل، سيعيشان كذبة. وهي لا تحب الفكرة، بل سرت قشعريرة

في جسدها. يجب أن تكون صادقة تماماً معه. حسناً، ليس تماماً! لن تستطيع أن تكشف له عمّا تشعر به حقاً نحوه. لكنها تستطيع أن تقول له إنه كان على حق، حين قال إن طريقة إدارتهما لزواجهما ليست من شأن أحد. وهذا يتناقض تماماً مع ما قالته ليلة أمس. ليلة أمس لم تكن على طبيعتها، كانت دمية مدهونة معطرة وسخيفة. انغمست في الحماقات وتأثرت بكلام داون. لكنها عادت هذا الصباح إلى شخصيتها الأصلية: امرأة عادية، وعادية جداً!

سوف تتقبّل فكرة أنها زوجة، على الورق، لرجل لطالما أحبته. ستكون قادرة على ذلك، لأن لا خيار آخر أمامها! لكنها فقدت ثقتها حين فتحت باب المكتبة ورأته. . بدا لها رجلاً شرساً متسلّطاً. كان يرتدي بذلة سوداء جميلة. وشعرت عند رؤيته برجفة سرت في كل أنحاء جسمها.

أنهى المكالمة التي كان يجريها، ووقف: «صباح الخير يا ماتي!».

كانت ابتسامته فاترة، وكأن نهوضها من النوم متأخرة ونّره.

ـ أنا بحاجة لأن أقضي وقتاً طويلاً في المكتب اليوم أيضاً، لكنني تمكنت من الحصول على تذكرتين لمسرحية «سوق التبن» لهذه الليلة، ونستطيع تناول العشاء في الخارج بعد المسرحية.

كان صوته ناعماً وبارداً جداً.

ـ هل الفطور جاهز؟

ـ أجل، قالت السيدة بريغز إنها ستقدمه!

وتمنت وهي تتمتم لو أنها تأملت نفسها في المرآة قبل أن تنزل!

ـ ما كان عليك أن تنتظرني حقاً، لقد استغرقت في النوم!

كانت تسير أمامه، متعثرة بعباءتها، ومضطربة بسبب قربه منها.

فتحت باب غرفة الفطور وصرّت على أسنانها. عليها أن تعود إلى طبيعتها، وأن تكبت إعجابها به. لقد تمكّنت من ذلك في الماضي، وتستطيع معاودة الكرة.

ـ كان يمكن أن تأكل منذ ساعات!

ـ وأفوت فرصة تناول الفطور مع زوجتي؟ ماذا ستظن السيدة بريغز؟

كان صوته أشبه بخرخرة قطة متوحشة.. لقد أخذ تعليقاتها ليلة أمس بعين الاعتبار، وراح يتصرف على أساسها.. كيف، بحق السماء، تمكن من الحصول على مقعدين لهذه المسرحية التي نفدت تذاكرها منذ شهرين؟ إنه النفوذ! إنها زوجة قطب من الأقطاب الّذين يحركون العالم، لكنها زوجة على الورق...

صاحت مدبرة المنزل: «ها أنتما إذن!».

وتقدمت تجر عربة الطعام إلى الغرفة الهادئة المكسوة بألواح الخشب اللماع.

ابتلعت ماتي غصة خجل، إذ ذكرتها العربة التي كانت السيدة بريغز تجرها، بالتمثيلية السخيفة التي لعبتها على العشاء ليلة أمس.

قالت السيدة بريغز: «لحم وطماطم، وفطر، وعصير وتوست وقهوة».

ووضعت الأطباق التي عددتها على الطاولة البيضاوية ثم ابتسمت لهما وسألت: «ستتناولان الغداء هنا؟».

فهز جايمس رأسه نفياً: «لا، لن أتناول الغداء هنا! وأنت حبيبتي؟ لدي عمل».

نظرت ماتي إلى طبق الطعام الذي وضعه أمامها، وأحست بوجهها يلتهب. أزعجتها كلمة حبيبتي، فهو لا يعني ما يقول.

وأجابت بصوت أشبه بالصرير: «لن أتناول الغداء هنا يا سيدة بريغز، لأنني سأذهب إلى السوق».

ستشتري ثوباً مناسباً تلبسه.. لا بد أنها كانت مجنونة حين تركت داون تقنعها بوضع كل ثيابها القديمة في أكياس ورميها في القمامة!

قال جايمس: «ولن نكون هنا هذا المساء. سأصطحب زوجتي إلى المسرح، سنتناول العشاء خارجاً فيما بعد».

أخذ يصب القهوة، وهو يبتسم ابتسامة صافية فاتنة: «لذا أقترح عليك أن تستريحي من عناء تحضير الطعام لنا. بإمكانك الذهاب الآن، سيسرّنا أن نعتني بأنفسنا».

عضت ماتي شفتها وهي تلمح نظرة المرأة العجوز التي بدت سعيدة ومرتبكة في الوقت عينه. هل يعرف كم من السهل عليه أن يفتن النساء، مهما كان سن الواحدة منهن أو وضعها؟ هل يستخدم هذا سلاحاً للحصول على ما يريد؟

مهما يكن، فقد عاد هذا الصباح إلى طبيعته، ناعماً متمدناً، لكن بعيداً ومختلفاً جداً عن الرجل المضطرب الذي واجهها ليلة أمس. طلب منها أن تعود إلى ارتداء الملابس التي اعتادت ارتداءها قبل أن يؤدي ذلك إلى عواقب وخيمة، لجهة ما اتفقا عليه!

وقبل أن تفكر جيداً بما قاله البارحة عن ثيابها، وقدرتها على دفعه للقيام بما لا يريده، قال لها بصوت يخلو من التعبير: «ماتي! حول ما قلته ليلة أمس..».

أشاحت بعينيها عن منظر الحديقة الجرداء ونظرت إليه مسلوبة الإرادة: «نعم؟».

انخفض حاجباه، ونظر إليها مباشرة: «أخطأت في إملاء إرادتي عليك في ما يتعلق بلباسك، هذا ليس من حقي!».

كان هذا آخر ما توقعت سماعه منه، وصبغت الحمرة وجهها، فردت بسرعة: «لا يهم!».

لم ترد التفكير في السبب الذي دفعه لأن يطلب منها أن تعود إلى إرتداء ثيابها القديمة، ولا تريده أن يفكر بالأمر. فالتفكير في علاقة في إطار زواجهما الحالي أمر حميم جداً، وسيزيد الأمور تعقيداً.

أخذ التوست يدهنه بالزبدة: «بل يهم! فحسب ما أعرف، أنت لم تفكري يوماً بمظهرك، بل كنت ترتدين ببساطة أول شيء تصادفينه».

وابتسم لها، وكأنه يحاول مسح أي إهانة قد يسببها كلامه، وأمسكت ماتي كوب القهوة بين يديها.

تلك الابتسامة غيّرت قسماته القوية المخيفة، وكشفت عن الحنان والاهتمام. كان هذا الجانب منه يحول حلمها الخيالي وحبها الصغير، إلى شعور صلب كالصخر.

وابتلعت غصة.. لهانت الأمور، لو عاملها كغريبة تعيش تحت سقف بيته.. ربما عليها أن تفتح فمها لتقول له هذا.

لكنه مال في كرسيه إلى الوراء ونظر إليها وهو يقول: «لا أستطيع أن أقول لك ما يجب أن ترتديه أو لا ترتديه يا ماتي! لديك كامل الحق في إظهار ما لديك من مفاتن! إنسي ما قلته ليلة أمس! فأنا لا أتودد إلى كل امرأة فاتنة أراها، وأنت آمنة من أي اهتمام لا تريدينه».

ـ أوه!

لم تستطع أن تفكر بأي رد. كان دماغها يدور سريعاً كالدوامة لجمع الكلمات التي تشكل الرد السليم، لكن بدا ذلك مستحيلاً.

فاتنة. ترجع صدى تلك الكلمة في دماغها.. هل يظنها حقاً هكذا؟ لكن آمنة من أي اهتمام لا تريده.. ماذا لو قالت له إن اهتمامه مطلوب.. ماذا سيحصل عندها؟

ابتلعت قهوتها واستجمعت نفسها، ثم أخذت نفساً عميقاً، وقررت أن تصحح الأمور.

ـ اسمع، الملابس الفاخرة ليست من طرازي! بصراحة، أنا لا أهتم كثيراً بما أرتدي. حين اقترحت داون أن أشتري ثياباً جديدة، اعترضت في البداية، ثم قررت أن أوافق.. وتساءلت عما إذا كان من الممكن...

ونظرت إليه نظرة معذبة تكشف عن ألم قديم: «.. أن أبدو لائقة، لا جميلة. أعرف أنني لا يمكن أن أكون جميلة! لكنني أردت أن أظهر أنوثتي، وهذا ما تخليت عنه...».

ـ منذ متى؟

لمعت في عينيه نظرة الصداقة الأخوية، نظرة بعيدة كل البعد عن السخرية والتهكّم. نظرة خالية من التسلية التي كان يشعر بها وهو يراها تخفق في أيّ عمل يدوي.

وخفق قلبها. إنه صديقها، ولطالما وثقت فيه، ويمكنها أن تتحدث إليه الآن.

ـ منذ كنت فتاة صغيرة بشعة، لم أسمع إطراءً على شكلي. أرادت أمي المسكينة ابنة ظريفة جميلة، لكنني لم أكن كذلك. وحين ولد وليام، كان طفلاً جميلاً، أشقر، أزرق العينين مع غمازتين جميلتين وابتسامة تخطف القلوب.

صمتت قليلاً تفكر: «حين رحلت، عرفت أن الذنب ذنبي. فلو كنت جميلة، مثل الطفل الذي خسرته، لأحبتني، وبقيت معي! بعد وفاة وليام، لم تعد تطيق وجودي إلى جانبها..».

وتابعت بجدية: «.. ثم حين دفعتني داون لأغير مظهري، فكرت في أنني قد أتمكن من إثبات خطأ أمي، وأن أبرهن لنفسي أنني لست

بشعة كما جعلتني أصدق».

فقاطعها جايمس: «أنت لم تكوني يوماً بشعة أو تافهة، أنت جميلة ولهذا السبب بالذات..».

ـ تعتقد أن علي الاستمرار في ارتداء..

ـ بالضبط!

وخفق قلبه بإحساس قوي مفاجىء.. لو كانت أم ماتي حية، لقال لها رأيه بصراحة.. لقد قضت على ثقة ابنتها بنفسها كامرأة! آه، لكم يقسو الأهل على أولادهم أحياناً!

وقف جايمس، واستدار ليقف إلى جانبها.

ـ يجب أن أذهب الآن، كوني جاهزة للخروج في الساعة السابعة!

ودنا منها يطبع قبلة على خدها. كان صوته أكثر نعومة مما سمعته من قبل: «أنهي فطورك يا ماتي».

بقيت مسمّرة في مكانها عشر دقائق، تتحسّس بأطراف أصابعها المنطقة التي لامستها شفتاه.. لم يقبلها من قبل! ولم تكن، بالطبع، قبلة حقيقية، بل مجرد تحبب! وهذه بداية أليس كذلك؟

لم تخبره أنها كانت مخطئة ليلة أمس، وأنهما ليسا مضطرين لرسم صورة لزواجهما تختلف عن الواقع... لتجنّب كلام الناس! الليلة، ستخبره.

لم تعد تريده أن يجدها مثيرة جداً، وفكرت أن المحبة أساس صلب أكثر لبناء أي علاقة.

وضعت ماتي زينتها بحسب التعليمات التي أعطيت لها. وطافت يدها فوق أقلام أحمر الشفاه اللماعة الذهبية.. واختارت لوناً فاتحاً، ووضعت نظارة القراءة ذات الإطار الفولاذي لتقرأ (لمسة زهرية) ولمسة هو كل المطلوب.. نسيت أمر اللون القرمزي، أو البرونزي اللماع، أو

الأحمر الكرزي الذي يجعل فمها يبدو كزهرة وردية.

وضعت أحمر الشفاه بحذر ثم وقفت، وأجفلت ألماً وهي تنتعل الحذاء الأسود الثقيل، الذي كان آخر غرض اشترته بعد ظهر ذلك اليوم الشتوي المعتم.

كان التبضع في شارع أوكسفورد كابوساً. فجو المدن يصيبها دائماً بالضيق.. الناس، السيارات، والشوارع التي لا نهاية لها والأبنية تخنقها، وتجعلها تشتاق إلى المساحات الواسعة والسكون الخالص لسهول سوسكس.

لكنها هنا في مهمة ولن تسمح لنفسها بأن تستسلم قبل النهاية. على الأقل داون ليست معها لتدفعها، لشراء أزياء فاخرة لمصممين مشهورين.. سوف تكتفي بالمحال العادية.

أصبح لديها الآن ثياب محتشمة غير مثيرة. وعلى الرغم من أن جايمس عدل عن رأيه، سوف ترتدي ما يريحها.. وإذا كانت علاقتهما ستتطور، فستحتاج إلى أكثر من الغريزة، كأساس لها.

وغمرتها فجأة الأفكار السلبية ونظرت إلى صورتها المنعكسة.. من تعتقد نفسها تخدع؟ بالطبع لن يقع في حبها.

حسناً، من الأفضل إذن أن يعترف أنه يجدها مثيرة حين ترتدي ملابس كاشفة.. وماذا في ذلك؟ بإمكانه أن يتدبر أمره! ألم يقل لها ذلك عند الصباح؟ فلطالما كان محاطاً بالإناث الأكثر فتنة وإغواء، ولم يقع في حب أي منهن. ما عدا فيونا، طبعاً.. وبالرغم من كل ما أدّعاه، من أنه اختارها لأنه يحتاج إلى زوجة، وأن فيونا كانت مناسبة لأنها جميلة ومن النخبة.. إلا أنها لم تصدقه. لقد أحب فيونا، وهذا مؤكد! ولقد جرحته في الصميم!

إذن ما الذي سيجعله ينسى فيونا، ويقع في حبها هي؟

لم تجد رداً على تساؤلاتها، وقررت أخيراً أن تكف عن التفكير بذلك إذ لا جدوى منه.

من المؤكد أنه لن يجدها مثيرة في البذلة الرمادية التي اشترتها اليوم... كل ما اشترته اليوم كان رمادي اللون، ما عدا بلوزتين «بيج» غير مثيرتين..

مررت مشطاً في شعرها اللماع، وأبقت نظارة القراءة على عينيها لأنها تجعلها تبدو أكثر رصانة وتعقلاً.

في الوقت المحدد نزلت إلى الطابق الأسفل، لتحافظ على موعدها مع زوجها.

سألها جايمس حين رآها: «هل تحتاجين حقاً إلى وضع النظارة؟».

ـ طبعاً، فأنا أنوي قراءة البرنامج!

وكبتت رجفة.. قوة ذراعه الدافئة جعلت أنفاسها تتسارع.. وقال يحذرها: «سيكون المسرح معتماً، ولن تري شيئاً!».

وملأت التسلية صوته وأطبقت أصابعه أكثر حول ذراعها، فقالت بحدة: «بإمكانك تركي!».

فأي احتكاك جسدي، سيجعلها تدنو من جسده القوي الرشيق، وتذوب فيه.. كانت تعرف أن هذا سيحصل لها، فهي ليست من حجر.. وأكملت: «لست على وشك الوقوع».

ـ مع هذا الحذاء، لست واثقاً من كلامك.

تجاهلت لهجته الساخرة حول ما تنتعله، وانتزعت ذراعها.. كانت تعرف أنه يسخر منها سراً منذ دخلت متعثرة إلى غرفة الجلوس لتراه مستغرقاً في القراءة.. رأت الهزل في عينيه، وسمعته في صوته.. حسناً، السخرية أفضل من الشهوة.. أليس كذلك؟

نظرت حولها في بهو المسرح المكتظ وقالت: «أعتقد أن علينا أن

نجد مقعدينا».

لم ترَ مسرحية منذ فترة طويلة، وآخر مسرحية رأتها كانت في قاعة بلدية القرية.

كانت متحمّسة لحضور هذه المسرحية. هل لتوسع أفقها الاجتماعي؟ أم لأنها ستجلس قرب جايمس، بما يكفي لتستمتع برائحته الرجولية، تشعر بدفئه؟

هذا ليس سؤالاً حقيقياً لأنها تعرف الرد، وتملكها اليأس!

كانت قد رفضت خلع نظارتها، لكنها وضعتها على طرف أنفها بحيث تنظر إلى المسرحية من فوقها.. لم يكن جايمس مكترثاً بالمسرحية، بل أخذ يراقب جانب وجهها.. رموشها الطويلة الكثيفة التي بدت داكنة في العتمة، الخط الواضح لأنفها الصغير، تكويرة شفتيها الناعمتين، والخط الثابت لفكها الذي يداعبه شعرها الناعم، وطول عنقها الشاعري.

لقد نجحت محاولاتها الواضحة في إخفاء ثنايا جسدها الأنوثي، تحت بذلة رمادية وقورة، وحذاء ثقيل ونظارات ذات إطار حديدي. لكنها لم تنجح في ردع جايمس الّذي بدأ قلبه يخفق بقوة وحنان، لم يختبرهما من قبل.

لقد أخذت ماتي تحذيره، ليلة أمس، على محمل الجد، بالرغم من كل ما قاله هذا الصباح. هل هي خائفة منه حقاً؟ ألا تعلم أنه لن يقدم أبداً على ما قد يؤذيها؟

أخذ يلعن بصمت عدم سيطرته على نفسه في الليلة السابقة.. هو من يفاخر بقدرته على السيطرة على كل أوجه حياته، فقد البارحة سيطرته على نفسه. مما جعله يتفوه بكل تلك السخافات.

لم يعرف ما الذي دهاه إذ لم يمر على فسخ خطوبته أكثر من ستة

أسابيع! كان من المفترض أن يكره النساء، بعد تلك المحاولة الفاشلة التي مرّ بها!

بالأمس، بقي يفكر حتى ساعة متأخرة من الليل، ووصل إلى الاستنتاج الصحيح الذي لا بد منه! إنه يرتكب جريمة بكل معنى الكلمة في إجبارها على إخفاء جمالها تحت تلك الثياب الفضفاضة والقاتمة، خوفاً من العواقب.

كان فشلها في الإصغاء إليه وإلى تعليماته أمراً واضحاً.. ويجب أن يحاول بجهد أكبر طمأنتها واقناعها بأن لا شيء سيخيفها منه.

لكن، إن اقتنعت بارتداء تلك الثياب المثيرة، فمن المحتم أن يظهر رجل ما في حياتها ويقع في غرامها، ويخطفها منه.

سترحل، بعد أن تدرك أن أنوثتها أبعد بكثير من التبرج المتقن، والفساتين الجميلة، وقصة الشعر الجديدة. وسيجعلها هذا ترغب في ما لم ترغب به من قبل، رجل في فراشها.

فتملكه الغضب. وقبل إسدال الستارة، حثها على الخروج من المسرح. كان الجو بارداً.. إنه بحاجة لأن يختلي بها، أن يتحدث، أن يقرر ما إذا كانت الفكرة التي خطرت له قابلة للتطبيق..

كان قد اعتقد أنه يستطيع السيطرة على انجذابه الجسدي نحوها، حتى أنه أصدر أوامره بأن تتوقف عن ارتداء ثياب مثيرة.. لكن، اللعنة! لن يستطيع هذا.

إذن، عليه أن يغويها بنفسه، وأن يتأكد أن ما من رجل آخر سيخطف زوجته منه.

ولن يكون هذا أمراً صعباً عليه. فبالرغم من اشمئزازه من كل النساء، إلا أنّ ماتي ليست كغيرها، بل امرأة مختلفة.

أمسك بمرفقها وأصابعه تضغط على اللحم الطري تحت الثياب

الرمادية السميكة، وبدا متوتراً.

ـ المطعم على بعد خمس دقائق، لذا دعينا نحرك دورتنا الدموية!

ـ جايمس..

ونظرت إليه والغصة في قلبها.. هل سئم المسرحية؟ أم أنه يصرّ على أسنانه لأن الناس رأوه علناً وأضاع أمسيته معها؟

ـ يمكننا العودة إلى البيت، لا داعي لتناول الطعام في الخارج! لا داعي حقاً! أنت على حق، لا حاجة إلى الإدّعاء؛ فما حدث أو لم يحدث في زواجنا هو شأننا الخاص.

واضطرت إلى المشي سريعاً لتلحق بخطواته الغاضبة. وكان حذاؤها يضرب الرصيف بقوة.

ـ نحن الآن هنا!

قام بجهد كبير ليسترخي، وأحس بشيء يذوب في داخله وهو يبتسم لوجهها المضطرب.. لم يكن يريدها أن تضطرب، بل كل ما أراده هو سعادة هذه المسكينة.

تورّدت وجنتاها من المشي سريعاً، وجعل الهواء البارد عينيها تلمعان كالذهب.. لم تقلل تلك البذلة الكئيبة الرمادية والكنزة الصوفية التي ترتديها تحتها، من فتنتها.. فعيناه انفتحتا بالنسبة لماتي.. وهو يريدها. لكن، هل هذه الرغبة تكفيها؟

سيحاول، بطريقة ما هذه الأمسية، أن يعرف. سيحاول إرساء أساس لمستقبلهما معاً، يختلف تماماً عن الذي انطلقا منه.

أمسك يدها وقال بخشونة: «دعينا نأكل».

كان يتوق إليها، وتساءل عمّا إذا كانت تشعر بالمثل.

مهما حدث، لن يدفعها إلى القيام بما لا يناسبها.

أرشدهما النادل إلى الطاولة التي حجزها لهما. فتحة في الجدار

مضاءة بنعومة، ومحجوبة بالستائر عن المطعم الفاخر، المعطر برائحة الياسمين المختلط برائحة أغصان النخل الناعم الأوراق.

بدا الموقع رائعاً للقاء رومانسي. وفكرت ماتي بهذا يائسة، من زهور الكاميليا البيضاء في إناء الكريستال الكبير، إلى الشموع الحمراء المرتعشة... لا بد أنه طلب كل هذا حين حجز الطاولة. إن استسلمت لهذا السحر فقد تشعر بالسخافة، وهي لن تتحمل أن تكون سخيفة!

عليها أن تقنعه أن لا حاجة إلى كل هذا، وأن ما قالته له ليلة أمس مجرد كلام سخيف، لم تفكر فيه ملياً. ستشكّل وجبة الطعام على ضوء الشموع كعاشقين عذاباً لها! فهي تريد أن يكون هذا حقيقياً!

نظرت ماتي إلى لائحة الطعام وطلبت أول شيء وقعت عليه عيناها، ثم نظرت إلى جايمس نظرة ثابتة وهو يقدم لها كوباً من العصير البارد، ويقول: «استرخي يا ماتي!».

ـ سأحاول!

وعدته لكنها لم تكن واثقة من قدرتها على ذلك. أصبحا وحيدين بعد انسحاب النادل، مع الإضاءة الناعمة ورائحة الياسمين المغرية. وحيدان والرغبة في أن تمد يدها وتلمسه تتأجج في داخلها.

تنحنحت بحدة، وسوّت نظارتها على أنفها، وقالت بمواساة حقيقية: «لست مضطراً للقيام بمثل هذه التمثيلية الهزلية، فقد كنت على صواب، فيما أخطأت أنا.. لا حاجة لأن نتظاهر!».

ـ ليس هناك أي تظاهر، أنا أستمتع بهذا!

وأمسك بأصابعه كوب العصير.. كانت سترته السوداء، المفصّلة بإتقان، تبرز عرض كتفيه، وعيناه الرماديتان تشعان جاذبية. لعله يقول هذا فقط لئلا يضايقها!.. ماذا قالت له في الليلة السابقة؟

ومن دون وعي منها أخذت رشفة كبيرة من كأسها، وتذكرت ما

قالاه البارحة. لقد قالت له إنها لا تريد أن يسخر منها أحد لأنها متزوجة من رجل لا تستهويه أبداً.

ألهذا السبب يتظاهر بأنه يستمتع برفقتها؟ خفق قلبها وتلوى. إلى أي مدى يمكن للمرأة أن تحب رجلاً لا يبادلها الحب ومع ذلك تبقى متعلقة به؟

ـ أريدك أن تستمتعي بتجربة أن تكوني في المدينة مع زوجك!

ليس زوجها بكل معنى الكلمة. لكنها تريده أن يكون كذلك، وجف حلقها. لماذا ينظر إليها وكأنها المرأة الوحيدة في العالم بالنسبة له، فيما ذلك بعيد كل البعد عن الحقيقة!

قالت بصوت بدا مخنوقاً: «هذا ليس مكاني، أشعر أنني غريبة عنه!».

ـ هس..

ووضع إصبعاً فوق فمها الزهري يسكتها، وأخذ نفساً مشحوناً وهو يشعر بالنعومة الحريرية، لشفتيها تحت لمسته. وقال في نفسه أن لا داعي للعجلة إطلاقاً. على جسده أن يتعلم الانتظار!

ـ باستطاعتك التأقلم مع أي مكان تقصدينه!

ونظر مباشرة إلى عينيها: «لا داعي لأن يضع شروطاً صعبة وسريعة. دعينا ننظر إلى علاقتنا كرحلة استطلاع واسترخاء، لنرى إلى أين ستوصلنا!».

وكان هذا أقصى ما يمكنه فعله لزرع بذور المستقبل الحميم في رأسها، وأكثر ما يجرؤ عليه في الوقت الحاضر. فهو مضطر للتقدّم بحذر مع ماتي، لا سيّما أن الحنكة تنقصها. ولن يسعه إخبارها بأنه يريد علاقة زوجية طبيعية، خشية أن يصدمها.

لاحظ توترها الشديد، ورأى التساؤل الذي قفز إلى عينيها

الذهبيتين، فتساءل ما هو أفضل رد إذا ما تفوهت بسؤال. وأخذ يلعن في سره وصول أول أطباق العشاء، التي قطعت صفو تلك اللحظة.

وفاجأهما صوت أنثوي ترافق مع عطر عبق به الجوّ.

ـ حبيبي! لمحتك في المسرح، وعرفت أنك ستأتي إلى هنا. هذا ما كنا نفعله دائماً بعد المسرح. أحد أماكننا الخاصة، أيها الشرير!

وتعالت ضحكة رنانة قبل أن تضيف: «لقد سمعت الشائعة التي لا تصدق، واضطررت ببساطة لاكتشاف الحقيقة بنفسي! تزوجت فعلاً! أوه، مرحباً ماتيلدا! التقينا ثانية إذن.. يا لها من مفاجأة مذهلة! يا إلهي، لقد قصصت شيئاً من ذلك الشعر!

أحست ماتي بالسقم، وكانت واثقة من أن وجهها تحول إلى اللون الأحمر. وتمنّت لو أنّ الأرض تنشق وتبتلعها. شعرت بالحرج لارتدائها تلك الثياب التي جعلتها تبدو سخيفة أمام المرأة الدخيلة. سوف يقارن جايمس بينهما الآن!

التقت فيونا كامبل بلير، حين جاء بها جايمس إلى بيرينغتون، ليعرفها على خطيبته.. فكانت الضيفة التي هبطت من الجحيم، وانتهى الأمر بماتي وأبيها إلى كراهيتها كرهاً شديداً.

لكنها الآن عرفت لم أرادها جايمس زوجة له، بعد أن رأت طولها وجمالها وأناقتها. فقد كانت ترتدي ثوباً حريرياً يبرز جمال جسمها.

لكنها نبذته، وتزوج كردة فعل.

وقف جايمس لباقة، وكانت فيونا تقف إلى جانبه، بل بقربه. قربها منه آلم ماتي. أما جايمس فلم يظهر مشاعره، لكن وجهه بدا مشدوداً وجسمه الرشيق متوتراً.

أرادت ماتي أن تصفع هذه المرأة، وبقسوة.. لماذا لا تتركه وشأنه ليمحو ذكراها من ذهنه نهائياً؟ لماذا تلتهم قسمات وجهه بعينيها

الزرقاوين القاسيتين، وتبرز شفتيها نحوه وكأنها تنتظر أن يقبلها؟ لماذا تضع الملح في جروحه التي لا تزال تنزف؟

سألتها ماتي بفظاظة: «هل تنوين الانضمام إلينا، أم أنك تتمتعين بالوقوف هكذا بحيث لا يستطيع الآخرون تناول طعامهم؟».

ـ ماذا؟

نظرت فيونا إليها مدهوشة، ثم قالت بعد أن لوت شفتيها بما يشبه الابتسامة: «يا إلهي.. ! لا، فلحسن الحظ أنا مع جماعتي الخاصة!».

ومررت أطراف أصابعها على خد الرجل الذي رفضته علناً.

ـ لقد جئت أقدّم تهنئتي، وأعتقد أن ذلك مسموح. أليس كذلك جايمس؟

وكانت لهجتها توحي العكس تماماً: «إلى اللقاء حبيبي! كن سعيداً، إذا استطعت!».

***

٦ ـ تأخر شهر العسل

بقي جايمس مضطرباً بقية الأمسية حتى أنه . . بالكاد لمس الطعام. راحت ماتي تتحدث عن أشياء تافهة بينما بذل جايمس كل ما في وسعه ليجيبها، لكنه فشل في ذلك.

وبعد أن ساد الصمت بينهما، قال: «سأطلب من أحدهم أن يستدعي لنا سيارة أجرة».

وأوماً للنادل يطلب الفاتورة. . لم يكن من السهل إنقاذ الأمسية، وفكره يحاول أن يتفهم ما يحدث.

لقد تعلم في عمر مبكر أن المشاعر تجعل المرء ضعيفاً، وأنها تتعارض مع العمل، تضيّع الوقت والطاقة. . طاقة يمكن أن تستخدم في أشياء أكثر إفادة. وكان هذا خير ما تعلمه.

إذن لماذا، منذ أن قاطعتهما فيونا، يشعر بالاضطراب؟ وأدرك أنه الغضب. لأن فيونا أفسدت الأمسية؟ لأن المرأة اللعينة دست شوكة تعليقها اللاذع في ماتي، وآلمتها؟ فقد شعر بأنه متأهب لرد أي خطر قد يحدق بماتي!

لاحظ موجة الارتياح التي غمرت قسمات وجهها حين قرر إنهاء هذه الأمسية المربكة لكليهما. . أعاد بطاقة اعتماده إلى جيبه، وقال لها: «سأطير غداً إلى «جبرت» من أجل الفندق الجديد والمنتجع، أتذكرين؟».

لقد أنجزت الأعمال الأساسية، وأبرمت الاتفاقية. . يمكن لمدير الموقع ومهندس الشركة العمل بدقة من دونه. . مع ذلك، سيرافقهم في طائرة الشركة غداً. قد يعطيه هذا الفرصة ليراجع نفسه ويقرر ما إذا كان هناك مستقبل لعلاقته بماتي أولاً. . فقد قلب تطفل فيونا القصير، الأمور رأساً على عقب.

سألت ماتي: «الوقت طويل؟».

إنها في الواقع بحاجة إلى بعض الوقت، للتأمل والتفكير، بما قاله جايمس! قبل وصول فيونا، شعرت بأنه يقترح أن يصبح زواجهما يوماً ما حقيقياً. في المستقبل، يمكن لزواجهما أن يصبح حقيقياً. . وقد يحبها يوماً ما!

«رحلة استكشاف». . هذا ما قاله، وقد توصل هذه الرحلة إلى أي مكان.

لكنها كانت مخطئة تماماً! فما إن رأى خطيبته السابقة، حتى تذكّر ما فقده وما عنده الأن، فاستحال مزاجه الدافىء حاداً، وأصبح شارد الذهن، يتظاهر بأنه يتمتع برفقتها.

ـ من الصعب تحديد ذلك!

واستدار حول الطاولة ليسحب لها الكرسي، وهو يتساءل بمرارة كيف استطاع أن يفكر بأنه قادر على إغوائها. وأن الأمور ستتغير بعد ذلك لتصبح رائعة.

لكن، لسوء الحظ، الحياة ليست كذلك. وهو يحتاج إلى الوقت لينظر بعمق إلى داخله، ويكتشف طبيعة المشاعر التي طالما ابتعد عنها وما إذا ستصبح، حقيقية يوماً ما. . يجب أن يجد الرد على هذا من أجلهما معاً!

راقبها وهي تبحث تحت الطاولة عن حقيبة يدها، وتضع نظارتها،

التي لا لزوم لها، في عمق الحقيبة.. وأكمل: «سوف أرسل لك البطاقات البريدية باستمرار، وإذا كنت لا تريدين حقاً أن تعودي إلى عملك، يمكنك ملء وقت فراغك بمساعدة أبيك في الانتقال».

واتسعت عينا ماتي ذعراً.. هل يخطط للبقاء بعيداً طوال هذه المدة؟ لماذا؟ هل للقاء فيونا علاقة بذلك؟ ألم يعد يطيق رؤيتها؟ هل أدرك الآن أي غلطة رهيبة ارتكبها؟ لو لم يتزوج «على الورق»، لفعل المستحيل لاسترجاع فيونا.. هل هذا ما يجعله مكتئباً؟

رحل جايمس قبل أن تستيقظ ماتي في الصباح التالي. وأحست بالبيت فارغاً من دونه، وفكرت بالاتصال بالوكالة لتسألهم ما إذا كان لديهم أي عمل لها.. لكنها تعرف أنها لن تتمكن من تركيز تفكيرها على أي عمل.. وعملت بنصيحة جايمس، واتصلت بأبيها.

كان كل شيء يجري أسرع مما توقعوا.. فقد تلقى منزل سوسكس، عرضاً مناسباً بعد مضي ثمانٍ وأربعين ساعة فقط على عرضه للبيع. في غضون ذلك، تم تأمين شقة قرب «سلوان سكوير»، وأجريت كافة المعاملات الرسمية بسرعة فائقة. لذا رحب والد جايمس بعرضها مساعدته.

وكانت هذه المساعدة تقتصر على فرز ما يجب نقله إلى الشقة، وما يجب بيعه في المزاد العلني، وما يجب رميه. وقد ساعدها ذلك على عدم التفكير بغياب جايمس الطويل.

وجعلها قول أبيها تجفل: «لو كان جايمس يعرف أنه سيقضي هذا الوقت الطويل في إسبانيا، لاصطحبك معه.. لا أرى سبباً لطول غيابه، فلا وجود للمتاعب حسبما أعرف.. سيعوض لك هذا عن شهر العسل!».

لكن ماتي ردت بسرعة: «لم أرغب في مرافقته».

ولم تكن تكذب. فلو عرض عليها، لرفضت.. فهي تحتاج إلى وقت لتتقبل فكرة أنها لن تحل أبداً مكان فيونا في قلبه، وأن تقرر ما إذا كان لديها القوة الكافية لمتابعة مهزلة الزواج هذه.

كانوا يجلسون في المطبخ بين صناديق الأغراض، حين أخرجت ايملي فلاكس وعاء الطبخ من الفرن لتقول بصوت ناعم: «أوافقك الرأي، فالبيت أفضل مكان في مثل هذا الوقت من السنة، إلا إذا كنت تتجهين إلى الجهة الأخرى من الكرة الأرضية!».

وضعت الوعاء وسط الطاولة، وقالت بحزم: «ادوارد، أعتقد أنه حان الوقت! أليس كذلك؟».

ـ ماذا؟ أوه! أجل، أجل، طبعاً!

وبدا مرتبكاً.

ـ ماتي، إيملي وأنا لدينا ما نقوله لك.

ورمى شوكته من يده.

ابتسمت ماتي: «ستتزوجان؟ أهنئكما؟.. متى؟».

فاستعاد شوكته واستقام: «وكيف عرفت؟».

قالت إيملي بخفة: «للنساء أنف يستشعر هذه الأشياء، أليس هذا صحيحاً يا ماتي؟ قررنا الزواج في نيسان، لنقضي شهر العسل في باريس. لن يكون السفر بعيداً! ادوارد، هلاّ حضرت الأطباق لأسكب الطعام؟».

وتبادلا نظرة شغف وإعجاب.. وجاء رنين جرس الهاتف يقطع تلك اللحظة الرومانسية.

قالت ماتي: «سأرد عليه، إنها على الأرجح المؤسسة التي ستنقل الأغراض، لتحدد الموعد في الصباح».

لكنه جايمس! وبما أنه اعتاد أن يتصل مرة في الأسبوع، فقد

استبعدت أن يكون هو المتصل. . وعادت إلى طاولة الطعام بعد دقائق وقلبها يخفق بقوة.

قالت: «كان هذا جايمس».

وأخذت نفساً عميقاً لتهدىء أعصابها: «سيعود إلى البيت بعد ستة أيام. وفي اليوم الذي يلي وصوله، سنطير معاً إلى «باربادوس» لنمضي شهراً هناك. لقد استأجر منزلاً على إحدى الجزر الصغيرة، على ما يبدو».

لم يذكر لها سبب هذا القرار، بل سألها ما إذا كان جواز سفرها جاهزاً، وطلب منها أن تشتري ملابساً مناسبة. وبدا صارماً.

عادت ماتي إلى مكانها، متجاهلة التعليقات الحماسية عن شهر العسل الرومانسي المتأخر.

لماذا، وبعد البقاء بعيداً لأسابيع، قرر أن يخصص شهراً كاملاً من حياته العملية ليكون معها؟

إلا إذا أراد أن يختلي بها ليقول لها إنه أدرك أن زواجهما المزيف غلطة، وإنه يريد إنهاءه. وهذا هو السبب الوحيد الذي استطاعت التفكير فيه، فهو قطعاً لا يطمع في الاختلاء بها كزوجين حقيقيين لم يمض على زواجهما وقت طويل!

لكن انهيار زواجهما، بعد رفض فيونا وإذلالها له، قد يضره أيضاً.

وربما يفكر باستشارتها في مسألة الحد من الأضرار.

* * *

ـ هل أنت أفضل حالاً؟

كانت ماتي غارقة في السبات. لكن القلق الناعم في صوته، ولمسة أصابعه الباردة على جبينها وهو يبعد خصل شعرها عن عينيها، جعلاها تصحو كلياً، وتعي بخجل أنها مصدر إزعاج كبير.

فتحت عينيها ببطء. . كان الفراش الكبير المزدوج مريحاً، وقد استلقت فيه مغطاة بمفرش أبيض قطني. أما الغرفة فأشبه بالجنة بأبوابها الزجاجية التي تخترقها أشعة الشمس البراقة المائلة إلى المغيب. .

تمكنت أن تقول بثقل: «جايمس!».

انحنى فوقها وجهه، حاجباه الأسودان هابطان إلى الأسفل. . لكنها رأت ما يشبه الابتسامة على فمه. ماذا بحق السماء سيظن بها بعد ما حصل البارحة؟

ارتجفت في داخلها، ما كانت فيونا لتصاب بدوار في الطائرة أبداً، أو يغمى عليها في قاعة الترانزيت في مطار باربادوس قبل أن تنقلها الهليكوبتر في رحلة مخيفة إلى هذه الجزيرة. . ولما وصلت منهارة، بالكاد تستطيع أن تقف، إلى هذه الجزر.

كانت فيونا لتتحمّل رحلة الثماني ساعات في مقعد الدرجة الأولى، وهي تشرب العصير، وتتبادل الأحاديث اللبقة والسريعة الخاطر لكن لا مجال للمقارنة بينها وبين فيونا. ففيونا لا تراودها هواجس أن يتركها زوجها.

تأوهت ماتي وسألت بغباء: «ألم يحل الغد بعد؟».

فابتسم جايمس من دون أن يجيبها، وسألها مجدداً: «كيف تشعرين؟ لقد نمت لساعات».

كيف تشعر؟ جلست ماتي تستند إلى الوسائد البيضاء لتعرف كيف تشعر، وحين رأت نظرة عينيه، تنبهّت إلى أنها شبه عارية.

بارتباك، شدت المفرش لتغطي نفسها. كانت نظرات عينيه كلمسة حسية، وكأن يديه بدأتا باستكشافها، فاضطربت أحاسيسها.

أطلقت تنهيدة أخرى. . عليها أن تكبح شوقها وتوقها إليه، فزواجهما على وشك النهاية. وهي متأكدة من هذا الآن، فما الّذي

جعله يفكر بالابتعاد فجأة عن الحياة الاجتماعية، لشهر كامل، غير هذا السبب.

سألته بحدّة: «هل وضعتني أنت في الفراش؟».

أحست وكأن يديه وعينيه على جسمها.. ولم تتذكر شيئاً عدا الصداع الذي أحست به وكأن جمجمتها تكاد تنشق إلى نصفين، والأقراص التي أعطاها إيّاها، وحمله لها على السلم.

ـ لا، لقد قامت ميرسي بهذا! واعتقدت أن هذا أفضل نظراً للظروف.

صلابة لهجته جعلتها ترتجف. طريقة تراجعه من جانب السرير، ودس يديه في جيبيه، وكتفيه العريضين المتصلبين تحت قميصه الأسود القصير الأكمام، فضحته.

لن يرغب بأيّ علاقة طبيعية معها في ظل زواجهما المجنون، وهذا أمر مفروغ منه!

سألت بخفة: «ومن هي ميرسي؟».

ورفضت أن تسمح له بأن يعرف كم يؤلمها موت أصغر أمل متبقٍ لهما.

ـ ميرسي وزوجها مانويل يهتمان بكل شيء هنا، وسيخدماننا طيلة الشهر الذي سنمكثه هنا.

وقطع الغرفة برشاقة ليفتح النوافذ الخشبية، ويترك النور يتدفق إلى الداخل.

ـ ستأتيك بالفطور بعد قليل.

واستدار إليها ولمعان الفضة في عينيه الضيقتين.

ـ بعد أن تأكلي، استحمي وارتدي ملابسك.. ارتدي شيئاً خفيفاً، فالحرارة تزداد ارتفاعاً هنا.. وسنقضي اليوم بهدوء ريثما تستردين قواك

تماماً.

لتسترد قواها! فكرت بهذا ساخرة وهو يخرج من الغرفة.. أم لتكون قوية بما يكفي لتتحمل ما سيخبرها به حول إنهاء زواجهما؟ لعله سيقضي معظم وقته بعيداً، في مواقع بناء، بينما تجلس هي بهدوء لئلا يثير طلاقهما في النهاية أي عجب، لأن انفصالهما سيكون مقبولاً.

ولن يخبرها السبب الحقيقي.. لن يقول إنه بعد رؤيته لفيونا لن يستطيع تحمل أن تحتلّ امرأة أخرى مكانها، ولو بالإسم. سيقول إنه يريد أن يكون حراً حتى تغير المرأة التي يحب رأيها في الزواج منه. لكن عندها لن يعود جايمس الّذي لا يعطي أهمية للمشاعر.

حسناً، لديها أخبار له! لن تستطيع الاستمرار هكذا، متأرجحة بين الأمل واليأس. فقد كانت رغبتها في أن يحبها للجنون.

ها هي استعادت عافيتها، ولن يملي عليها ما تفعله! وأنزلت ساقيها عن السرير لتثبت هذا، وشدت على أسنانها ثم سارت إلى الحمام الملحق بالغرفة. أعجبها الرخام الأخضر، والكروم اللماع، والباب الزجاجي المربع المخصص للدوش، ورفوف مستحضرات التجميل والعطور.

جعلها الاستحمام وتنظيف أسنانها تشعر بالتحسّن.. ووجدت، عند خروجها، صينية على طاولة تحت إحدى النوافذ، فظنّت أن ميرسي دخلت وهي في الحمام.

داعبت رائحة القهوة الساخنة أنفها، لكنها تجاهلتها مؤقتاً لترتدي تنورة قطنية زرقاء خفيفة وبلوزة بيضاء.. ثم شربت القهوة وهي تنظر من خلال النافذة، إلى العشب الأخضر المجزوز حديثاً والممتد إلى البحر الذي ترتطم مياهه بنعومة بخليج صغير أبيض على شكل هلال.

وأقفلت مصاريع النافذة الخشبية، لن تغريها هذه الجنة! ولن

تجعلها تتقبّل ما سيقوله لها، وإن كانت خلاّبة!

أزعجتها رائحة البيض المقلي، لكنها أجبرت نفسها على تناول شيء من الفاكهة.. ثم فتشت عن حذائها القماشي.. لا بد أن ميرسي قد أفرغت الحقائب ليلة أمس، فأغراضها مرتبة ومعلقة، وملابسها الداخلية وثياب نومها مطوية داخل الأدراج.

وكذلك ثيابه. فكيف لميرسي، أن تعرف، أنهما ينامان في غرفتين منفصلتين.. سينقل جايمس أغراضه سراً اليوم، من دون شك.

جايمس.. وأحست بضيق في معدتها لفكرة مواجهته، والتحدث معه لحل الأمور. لكن يجب أن تفعل هذا، والآن!

وقفت، وخرجت من الغرفة ثم نزلت بضع درجات عريضة مستديرة من الخشب المصقول، لتجد ميرسي أمامها.

كانت ميرسي امرأة صغيرة الجسم، جميلة في أواسط الأربعين.. وأعجبت ماتي ببشرتها الناعمة بلون القهوة، وعينيها السوداوين اللامعتين.. وبدت نشيطة، لطيفة المعشر. وقالت بلكنة إسبانية خفيفة: «أرجو أن تكوني قد تغلبت على تأثير السفر الطويل، أعرف كم أنّ هذه الرحلات مزعجة!».

وكانت ابتسامتها لطيفة، فأحبتها ماتي فوراً، وأحست بالاسترخاء نسبياً.

ـ أنا بخير تماماً، شكراً! أبحث عن زوجي هل رأيته؟

ـ إنه ينتظر قرب بركة السباحة، سأدلك.

وسارت أمام ماتي عبر غرفة واسعة يملؤها نور الشمس، لها أبواب زجاجية مفتوحة على نسيم البحر، وهي تشرح لها: «من الأفضل أن تستخدمي البركة للسباحة إلى أن تعرفي الشواطىء الآمنة.. بعضها فيه صخور مرجانية تحميك من مخلوقات البحر المفترسة وأسماك القرش،

والبعض الآخر ليس فيه صخور.. على أيّ حال، سيدلكما مانويل عليها!».

فردت ماتي بخفة: «أظنني سألزم البركة!».

كانت كل خطوة تخطوها، تقربها منه، وكل ثانية تمر تقربها من ساعة الصفر، ساعة النهاية.

قالت ميرسي: «سأحضر لكما القهوة الطازجة بعد لحظات، وعصير فاكهة بارداً!».

سمعت ماتي ما كانت ميرسي تقوله وهزت رأسها، ثم نظرت إلى مياه البركة المتلألئة.

كان التراس الحجري محاطاً بالأشجار، والأغصان مغطاة بالزهور الحمراء القرمزية.

ها هو جايمس ينتظرها، ممدداً على كرسي طويل وبشرته تلمع بقطرات الماء.. كان يلبس ثوب سباحة أسود قصير يظهر جسمه القوي العضلات.

كيف، بحق السماء، يأمل أن يبقى رأسها صافياً، وتفكر بهدوء، وتتمكن من مناقشة مستقبلهما بتعقل، وهي ترى تفاصيل جسمه الذي ينبض بالرجولة؟

لكن، هذه هي حال الحياة، هي غير منصفة دائماً!

ـ ماتي!

وأجفله صوت ميرسي فتنبّه إلى وجود ماتي، أمّا هي، فلم تحرك ساكناً.

قال والرضى في صوته: «تبدين أفضل حالاً بكثير!».

لكنه لم يبتسم. كان فمه مشدوداً وكأنه يصرّ على أسنانه، وقرأت التوتر على وجهه الوسيم النحيل. ولم تستطع اكتشاف نظراته خلف

نظارات الشمس السوداء.

لا بدّ أنه يجد الموقف صعباً، مثلها. وعرفت أنه ليس رجلاً قاسي الفؤاد، وأنه سيجد صعوبة في أن يقول لها إن الشراكة البسيطة، والتفاهم المشترك اللّذين اتفقا عليهما حين طلب الزواج منها، لم يعودا مقبولين، وإنه يريدها أن تخرج من حياته في أسرع وقت ممكن.

تشوقت أن تأخذ وجهه بين يديها وأن تقبل هذه الخطوط المتوترة الغادرة، لكنها لا تستطيع! بدلاً من ذلك، ستضطر لأن تسهل الأمور عليه قدر المستطاع، وتتظاهر أن تغيير رأيه لا يهمها.

ابتسم جايمس لها قائلاً: «لا تقفي هكذا! اجلسي هنا بعيداً عن الشمس!».

وأشار إلى كرسي آخر منفصل عن الذي يستخدمه، في ظل خيمة ضخمة عليها رسومات زهور. وأكمل: «لا أريد أن تحترق بشرتك!».

لا ضرر كبير في هذا، فقد كان جسم ماتي مغطىً. لكن المياه الزرقاء للبركة بدت باردة مغرية. من الواضح أن جايمس قد سبح، ولو كان الموقف مختلفاً، لعادت إلى المنزل وارتدت ثوب سباحتها، وقفزت إلى الماء مباشرة.

لكن يجب ألا تبقى الأمور على هذا الحال، يجب ألاّ تشعر بأنها دخيلة في حفلة غرباء. وراح القماش الناعم للتنورة يلتصق بجسمها بفعل الهواء العليل، وغاص قلبها.

قال لها وهي تجلس متوترة على حافة الكرسي: «يجب أن أتكلم معك!».

إنها ساعة الصفر.. جف فمها، وتسارعت نبضات قلبها. أرادت أن تهرب، أن تختبىء، ألاّ تسمع هذا.. وكادت تبكي حين ظهرت ميرسي لتنقذها ولو للحظات.

كانت الصينية التي وضعتها على الطاولة المنخفضة تحمل فنجاني قهوة طازجة وكريما وسكر، وإبريق عصير، وكأسين، ومكعبات ثلج.

فقالت مموّهة، علّها تخمد نار الخوف التي استعرت في قلبها فجأة: «أوه، رائع! شكراً لك ميرسي! أليس هذا رائعاً يا جايمس؟ هل تأخذ القهوة أم العصير؟».

ومن دون أن تنتظر جوابه، قالت تسأل ميرسي الّتي همّت بالذهاب:

ـ في أي وقت تفضلين تقديم الغداء يا ميرسي؟ أي وقت يناسبك أكثر؟ شيء خفيف كما أعتقد، أليس هذا أفضل في هذا الحر؟

وتمنت.. تمنت أن تقفل فمها! يمكنها أن تتفوّه بالتفاهات لساعات، لكن هذا لن يغير شيئاً!

إضافة إلى هذا، كان التوتر يقتلها! من الأفضل إذن أن تنتهي منه، أن تخرجه إلى العلن. عندها، ستحدد موقفها.. طالما أنهما مرتبطان قانونياً، ستساورها الآمال الكاذبة.. لذا، سيكون إنهاء الأمر أفضل طريقة لها، وعلى المدى الطويل.

ـ الساعة الواحدة وقت مناسب يا ميرسي، أليس كذلك؟

أعادها صوته إلى الواقع، لتعي أن المرأة الأخرى قالت شيئاً لم تسمعه. كانت مشغولة جداً بأحاسيسها وشجونها، فلم تسمع إلاّ صوت جايمس.

تراجعت ميرسي.. فرفعت ماتي رأسها بجهد كبير، وأبعدت شعرها عن وجهها بكلتي يديها وقالت: «لديك ما تقوله لي!».

ـ هذا صحيح!.

كان فمه مشدوداً. خلع نظارته الشمسية ووضعها على الطاولة قرب الصينية، فاستطاعت أن ترى عينيه، لكنها لم تستطع معرفة ما

ينوي قوله من خلال نظراته.

فحثته: «إذن؟».

حاولت أن تتماسك، وألاّ تبدو مشدودة الأعصاب، مرتبكة.

مال إلى الأمام، يسند ساعديه إلى ساقيه، وأبقت ماتي عينيها ثابتتين تتأملان عينيه. عرفت أنّها لو تركتهما تشردان إلى كتفيه العريضين وصدره المتسع الصلب، فستضيع وتصبح حطاماً باكياً نازفاً يثير الاستهزاء.

ـ لا أعتقد أن الأمر سهل!

أحست أن الدم جف من وجهها، وأغمضت عينيها.. شعرت بالغثيان.. إن هذا على وشك أن يحدث؟

وأكمل: «قبل زواجنا عقدنا صفقة، لكنني مضطر لأن أقول لك إنني غير قادر على الالتزام بالوعد الذي قطعته!

فسحبت نفساً قصيراً.. وقالت له بصوت رفيع: «أفهم هذا!».

لكن صوته انخفض وأصبح أكثر لطفاً: «لا، لا أظن أنك فهمت! لقد رأيت زواجنا كواحة أمان من المتطفلات اللّواتي يتربّصن بي، من دون أيّ علاقة جسدية بيننا. وسرت في هذا الطريق، ولعل هذا ما تريدينه وتتوقعينه مني، فهل أنا على صواب؟».

لم يكن لديها أدنى فكرة عما يعنيه، ولم تكن قادرة على الرد. يمكنها أن توافقه على فكرة الزواج الملائم، وتخدع نفسها بأنها قانعة. لكن كيف يمكن أن تقول له إنها تريد حبه بأي طريقة ممكنة، وبكل ذرة من كيانها؟

رد على سؤاله بنفسه: «أعرف أنني على صواب! حين حذّرتك من العواقب الممكنة إن استمريت بارتداء ثياب مثيرة، لم تستطيعي العودة إلى طرازك القديم بسرعة. لكن، يجب أن أكون صادقاً معك، فكلانا

يستحق هذا! ماتي، أريدك! ولو ارتديت كيساً قديماً أو ثياباً فاخرة سأفخر بك دائماً كزوجة لي. لا أستطيع العيش هكذا، أريدك أن تصبحي زوجتي الفعلية!».

كان في عينيه نظرة فارغة، والتوى فمه: «إذن، إما أن نجعل زواجنا زواجاً حقيقياً، وإما أن ننهيه! والقرار يعود لك! لن أستعجلك، أمامنا أربعة أسابيع هنا! أعتقد أنه وقت كافٍ لتقرري! لن أضغط عليك! مهما حدث، سأحترم قرارك!».

نظر إليها ينتظر ردة فعل وقال: «تبدين مذهولة، أنا آسف! سأتركك بسلام لتفكري بالأمر».

* * *

٧ ـ خيّبت أملي

راقبته ماتي يبتعد، ونبضات قلبها تتسارع في صدرها. . لم تستطع أن تصدق أذنيها! لا بد أنها لم تسمع، أو أنها أساءت الفهم، أو أن دماغها لا يعمل جيّداً. .

كيف يمكن أن يرغب فيها وقد شاركته حسناء مثل فيونا الفاتنة، الأكثر حنكة، حياته؟ أتراه السبب؟

أيريد استخدامها لطرد ذكرى المرأة التي لا يزال يحبها، من رأسه؟

أو أن الاتفاق الذي عقداه لم يرضه من الناحية الجسدية، لا سيّما أنه رجل يحتاج، كغيره من الرجال، إلى هذا النوع من العلاقة؟

أحست بوجهها يحمر، فسكبت عصير الفاكهة في كأس طويل. . ثم نظرت إليه، إنها لا تريده! لا بل تريده!

إنها تريده أن يعاشرها معاشرة الأزواج! بالطبع تريد! مجرد التفكير بالأمر جعل اللهب يشتعل في أعماقها.

لكن، عليها أن تفكر بهذا جيداً، وبتعقل. لن تسمح لمشاعرها بأن تتحكّم بعقلها.

وقفت على قدميها وأخذت نفساً عميقاً، ثم لحقت به. . عليها أن تطرح السؤال الذي يشغلها: ستسأله ما إذا كان يستخدمها في محاولة للخلاص من ذكرى فيونا. إذا كان هذا هو سبب تغييره موقفه، فسترفض!

كانت تعرف أن ما من مجال لمقارنتها بالمرأة المحنكة الفاتنة التي أراد حقاً أن يتزوجها. وإن وصلا إلى هذا الحد، فسيجدها شريكة مسكينة. . وعذراء ساذجة. ومن دون حبه، ستكون العلاقة مأساوية وتزداد الأمور سوءاً.

لو تبعت مشاعرها وأصبح زواجهما فعلياً سيشعر بأنه مقيد. وبما أنّه رجل شريف، سيصعب عليه التراجع والقول إن زواجهما غير ناجح، ويطلب الطلاق.

غادرت الڤيلا، وسارت فوق العشب الزمردي الأخضر. .

بدت الحرارة خانقة، والتصق قميصها بجسمها. . رفعت شعرها عن عينيها بيدها، ونظرت من حولها. . شكّل عمودان حجريان الحد الفاصل بين الطريق الداخلية والطريق التي تقود إلى القرية الصغيرة، والميناء الذي رأته من الطوافة بالأمس. . لا يمكن أن يكون قد اتجه إلى هناك، بثوب السباحة.

اتجهت ماتي نحو البحر. . كانت درجات السلم الخشبي الطويل تقود إلى الخليج المخفي، والرمل الأبيض. . وشعرت بأنها مضطربة ومتوترة.

رفعت يدها تظلل عينيها من وهج الشمس المؤلم، والتفتت حولها تبحث عنه. وتذكرت فجأة كلام ميرسي عن سمك القرش. . فانتابها الخوف الشديد.

لكنها وبخت نفسها، فهو يعرف ما يفعل، ولطالما عرف! من الغباء أن تراودها هذه الأفكار، كذلك، فجايمس ليس غبياً! لا بد أنه يحرق قليلاً من طاقته التي لا حدود لها، ويعطيها الوقت لتفكر بما قاله لها.

وبما أنه لا يهتم بالمشاعر، فهو لن ينزعج كثيراً من ردها أو يهتم

به.

لم يفقد رغبته في النساء كما ظنّ، فالعلاقة الجسدية مهمة بالنسبة له. لكنه استغرق بضعة أسابيع ليصل إلى هذا الاستنتاج.

وإذا لم ترضخ، فسينتهي زواجهما الغريب، وتنقلب إلى واحدة من المخلوقات الجميلات اللواتي يحمن حوله.

مع تنهيدة ارتياح مثقلة، رأته يسبح عائداً إلى الشاطىء.. واسترخت كتفاها، وصفا دماغها فجأة بصفاء المياه التي تفصلهما.

لم يعد يهمّها سوى جعل زواجهما حقيقياً!

ليست فأرة جبانة، بل امرأة مكتملة الأحاسيس! وهو زوجها، وتحبه بما يكفي للتعويض عن عدم حبه لها!

خلعت حذائها القماشي، وسارت ببطء إلى الماء، متجهة نحوه.. حين وصلت الموجات إلى خصرها، توقفت تراقبه يسبح بنشاط.

وحين بللت موجة مرتفعة قميصها، شهقت.

في تلك اللحظة، رآها وعرفت ذلك لأنه غيّر سباحته إلى سباحة جانبية متكاسلة. وبقيت عيناه عليها وهو يقترب ببطء، وكأنه لا يريدها أن تكسر وحدته.

وحين أصبح على بعد خطوات منها، وقف وأرجع شعره الأسود إلى الوراء بيد واحدة.. بدا التوتر على جسمه، لكن ضربات قلبها الراعدة وحركة الماء الرقيقة، حجبت عن أسماعها كل ما يحيط به.

ـ ماذا تفعلين؟

كان محقاً، فما الّذي تفعله.. مرتدية كل ثيابها، ومغمورة حتى الخصر بالماء! وأحست بشفتيها تتقوسان.

ـ إنها إشارة رمزية، ألاقيك في منتصف الطريق!

ومدت له ذراعيها.

ـ ماتي!

وبدأ يتحرك نحوها، والصدمة في عينيه.. اندفعت عبر الماء، تلامس بيديها كتفيه، وتتحسس بأطراف أصابعها قوة عضلاته وبشرته الحريرية.

كانت أنفاسه متسارعة خفيفة، وعضلات معدته مشدودة. أما ماتي فكانت ترتجف كورقة شجر في مهب الريح.

قالت تدعوه بصوت مقطوع الأنفاس: «عانقني».

فسألها بصوت ناعم: «أتريدينني أن أفعل هذا حقاً؟».

لكنه لم يمد يديه، بل أبقاهما مشدودتين إلى جانبيه.

أعطى الحب ماتي الشجاعة التي تحتاجها، وانزلقت يداها من على كتفيه لتمسك إحدى قبضتيه وتفتح أصابعه ببطء وعيناها مركزتان على ما تفعل.. وقالت: «ألا يمكنك أن تفعل؟».

ورفعت يده لتضعها على كتفها المرتجف الذي يعكس الحقيقة.. وسمعت أنفاسه المتحشرجة، ورأت الارتجاف العميق الذي تملك جسمه.

ـ وهل فكرت بالأمر جيداً؟

وأكمل يقول: «لم يكن ما طلبته إنذاراً يا ماتي، بل مجرد إقرار بأمر واقع. أريد زواجاً كاملاً، لكنني لا أريدك أن توافقي على شيء لا يسعدك!».

تمتمت: «أنت لا تسهّل الأمور!».

وأحست بالسخافة والارتباك الشديد. لا بد أن محاولتها التعبير عن مشاعرها خرقاء. لو كانت تتمتع بخبرة فيونا، لأصبح الأمر سهلاً.

تمتمت: «أودّ أن يكون زواجنا مكتملاً كذلك، ولا أستطيع التعبير

عن هذا أكثر».

ثم استدارت عنه، وشقت طريقها في الماء الصافي إلى الرمل الأبيض للخليج. وأحست برغبة في البكاء، فقد تصورت نتيجة مختلفة جداً حين اتجهت نحوه.

لقد عرضت نفسها عليه وها هو يتصرف وكأنه يريدها أن تغير رأيها.

وكتمت غصة في صدرها. لكن الغصة تحوّلت إلى شهقة حين أمسك بها من الخلف، وأدارها ليعانقها.

كان عناقه الرائع همسة لم تستطع استيعابها، وأحست بشفتيها تنفرجان وترتجفان وتوقف الزمن جامداً... ثم انفجرت أحاسيسها بوحشية هزّت أعماق روحها.

أذابتها موجة المشاعر التي سرت في جسمها سريان النار في الهشيم.. وجعلتها تتعلق به عاجزة، وتغرق في بحر من مشاعر الحب المتلاطمة. وحين ابتعد عنها بعد قليل بدا مرتجفاً مثلها، وهو يقول لها: «أعتقد أنّ من الأفضل أن نعود إلى المنزل، أليس كذلك؟».

أنزل يديها عن عنقه، فحاولت أن تجبر نفسها على التركيز جيداً.

كان عناقه كل ما حلمت به، لكنه لم يرغب في إطالته. أما هي، فتمنت لو يستمر هذا العناق إلى الأبد.. وتساءلت عمّا إذا كانت متشوقة أكثر من اللازم؟ هل تعانق النساء المحنكات الرجال بشكل مختلف؟

لكن نظرته إليها وهو يدسّ ذراعه حول خصرها، أعادتها بسرعة إلى حالة الهذيان.. وكادت تنهار حين قال بنعومة: «أرغب في خلوة تامة مع زوجتي. أريد أن أجعل زواجنا حقيقياً. أرغب بفراش ناعم لأخلو بزوجتي وأحبها».

ولم يكن من الممكن أن تصل إلى الغرفة التي استيقظت فيها هذا الصباح، لو لم يمسك بها. إذ أحسّت وكأن عظام ساقيها تحولت إلى مطاط، وأن أنفاسها تخرج في دفعات بغير انتظام. كادت المعركة بين التوتر الذي يشلّها ومشاعرها المجنونة تحطمها وتصيبها بالذعر.

كان الفراش مرتّباً والمزهريات المعطرة تزيّن الطاولتين قرب السرير.. لكن تغييراً أكثر عمقاً حدث. فعندما خرجت هذا الصباح، أي منذ ساعتين، كانت واثقة من أنه سيقول لها إن زواجهما انتهى.

لكن هذا لم يحصل، بل طرأ تغيير مفاجيء.

فهل ستتمكن من التعامل مع هذه التغيير؟ إنها في الواقع لا تعرف!

حاولت أن تسحب نفساً عميقاً لتهدأ، لكنها بدلاً من ذلك راحت ترتجف. قطب جايمس قليلاً، وأطفأ جهاز التبريد ليقول: «اخلعي ملابسك المبتلة يا ماتي يبدو أنك تشعرين بالبرد!».

كان يبتسم بلطف، لكن الغموض لفّ عينيه ولم تستطع أن تقرأ أفكاره.

ـ أم تراك خائفة؟ لا تقلقي، لن أتصرف وكأنني رجل كهف! سنأخذ الأمور بروية، وإذا غيرت رأيك، فما عليك سوى أن تعلميني والآن أقترح أن نغتسل قبل تناول الغداء.

دخل الحمام. وجف فم ماتي وهي تراقبه، معجبة بجماله الرجولي القوي. وارتعدت فرائصها من قوة حبها له وفكرة أنه حين سيصل إلى الأمر الفصل معها، سيصاب بخيبة أمل كاملة.

كانت تسمع صوت الدوش. وحاولت أن تجبر نفسها على التحرك لكنها لم تستطع، فوجدها واقفة في مكانها حين خرج وهو يجفف شعره.

كان مثال الكمال.. وأطبقت حنجرتها، فلم تعد تستطيع أن

تتنفس، وأحست أن وجهها تجمد.

نظر إليها نظرة مطوّلة مقوّمة ورمى المنشفة المبللة من يده.. وقال بقلق: «هذا لن ينجح.. أليس كذلك ماتي؟ حين تعانقنا على الشاطىء ظننت أنه سينجح، وأنك عنيت ما قلت.. لكنك الآن، تبدين وكأنك على وشك الجلوس على الكرسي الكهربائي. كان عليّ أن أتذكر كيف تتساقين دائماً مع رغبات الناس: خطط داون للتغيير، طلبي الزواج منك، والشروط التي وضعتها بداية على هذا الزواج، والشروط هذا الصباح أن نلغيها!».

أخذ يفتح الأدراج، ليجد أخيراً ما يبحث عنه ورمى ثياباً على السرير: «كما قلت، لا أريدك أن تفعلي ما لن يسعدك، لذا سننسى الأمر كله! موافقة؟ سأنقل أغراضي إلى غرفة أخرى. صحيح أنني أرغب فيك، لكنني لن أحولك إلى ضحيتي».

هذا فظيع! وتدحرجت دمعة على وجه ماتي الشاحب. فذكّرتها حرارتها اللاذعة أنها مخلوقة حية تتنفس، وأنها تستطيع أن تتحرك وتتكلم وتكون صادقة معه، كما كان معها.

لن تخبره الحقيقة كلها، لن تقول له إنها واقعة في حبه وأنها تحبه منذ سنوات. لن يرغب في أن ترمي هذا في وجهه! لكنها تستطيع أن تشرح له الأمور الأخرى.

قالت بصوت بدا مرتجفاً: «أنا لست خائفة منك!».

وتسلل احمرار خفيف إلى بشرتها واجتاحت قشعريرة جسمها.

كان يدير ظهره لها وهو يشد حزام السروال القصير حول خصره.. ورأت كتفيه العريضتين ترتفعان من دون اكتراث، وكأنه لا يصدق ما تقوله.

أكملت بحزم: «في الحقيقة، أنا خائفة من أن أخيّب أملك، فأنا لا

أملك أدنى الخبرة بالمقارنة مع..».

ولم تتحمل ذكر الاسم، وتذكيره، من دون ضرورة، بالمرأة التي تحتلّ أفكاره باستمرار، لذا بدلت الموضوع.

ـ.. أقصد صديقاتك في الماضي. وأنا لست لوحة زيتية!

هاك، لقد قالتها.. أخرجت مخاوفها إلى العلن.. استحوذت كلماتها على اهتمامه فجمد، ثم استدار ببطء ليواجهها.

اسودّت عيناه، وتأوه: «ماتي! لو كانت أمك حية، لأسمعتها رأيي! يجب أن تتوقفي عن الحط من قدر نفسك. تعالي إلى هنا!».

بدا لطيفاً، وتقدمت ماتي. وأسرت عيناه السوداوان عينيها عدة لحظات، فكتمت أنفاسها، اقترب منها ببطء، ببطء شديد وأخذت ترتجف.. كانت دغدغات صغيرة تتحرك في أوصالها وصولاً إلى أعماق قلبها الذي اشتعل بحب يهدد بالإنفجار في أي لحظة.

كانا قريبين جداً، وما عليه إلا أن يحرك رأسه قليلاً ليلتقيا.

مالت قليلاً نحوه في دعوة غريزية، وسمعت النفس الأجش الذي دخل رئتيه فسرت إثارة رائعة في شرايينها.

لكنه وقف، وقادها إلى مرآة طويلة، ثم أدارها لتواجهها، ويداه على كتفيها.

قال بصوت منخفض حاد: «انظري إلى نفسك.. واخبريني ما ترين».

بدت مرتبكة ومضطربة، فقال: «إذن سأخبرك بنفسي! انسي ما قيل لك سابقاً. أنت تنظرين الآن إلى امرأة جميلة، ذات عينين ذهبيتين، وثغر رائع، وجسم رشيق، وخصر نحيل، وساقين جميلتين».

أحست ماتي بالدوار بحيث لم تستطع الوقوف على قدميها..

وكان الدم يندفع بقوة في شرايينها، ويضج في رأسها.

وضاعت في ضبابة حمراء ملتهبة، من جراء الأحاسيس الجديدة التي يثيرها فيها.. واستندت، متراجعة إلى الخلف، إليه. وتنفست بحدة، وعيناها اللوزيتان تراقبان يديه، واحنى رأسه ليدفن وجهه في عنقها.

استدارت بين ذراعيه، لتلاقي رجلها.

ـ أوه، ماتي!

خرج اسمها ممزقاً من بين شفتيه، وازداد سواد عينيه، وتجاوب أحدهما مع الآخر، وكانت لحظة أعظم مما حلمت بها.

ستتذكر هذه المرة الأولى إلى الأبد.. فكرت بهذا حالمة وهي تضمه بين ذراعيها، وكان هو أيضاً يضمها ويضع رأسها على كتفه.

قال بصوت أجش عميق: «أنت رائعة بشكل لا يصدق، كيف يمكنك التفكير بأنك ستخيبين أملي وأنت جميلة هكذا، ومثيرة؟».

اقتربت منه أكثر، وأخذت تتمتم بكلام مشوش.. لم تشعر قط بمثل هذه السعادة..

استندت إلى مرفقها، ونظرت إلى وجهه المحبوب: «جايمس، هل غيرت رأيك حول إنجاب الأولاد؟».

ارتسم تساؤل حاد في عينيه فقالت تشرح: «نحن لم نتخذ الاحتياطات!».

لم يفهم سريعاً ما عنته. ولكنه استقام فجأة وأنزل ساقيه من على السرير.

ـ اللعنة! لا! لا تشغلي بالك بهذا!

ونظر إليها: «لقد جعلتني أفقد السيطرة على نفسي، وصدقيني،

هذه هي المرة الأولى!».

كانت ابتسامته المفاجئة ماكرة، أرسلت شرارات كهربائية في جسدها كله.

ـ يمكنك اعتبار هذا الكلام مديحاً.. ويجب أن يرفع هذا من ثقتك بنفسك!

وقف على قدميه مبتسماً: «أنت رائعة ماتي، أتعرفين هذا؟ لقد نسفت نواياي بأن أجعل إغواءك بطيئاً، ومكتملاً!».

مدت يدها تمسك يده، وأكدت له بنعومة: «أمامنا شهر كامل لنكون بطيئين كما نريد».

انحنى يقبل خدها: «تصحيح، أمامنا بقية حياتنا!».

واكتأبت عيناه فجأة: «ماتي، سأتخذ الاحتياطات في المستقبل.. لكن بالنسبة للآن، هل هو وقت آمن لك؟».

ابتسم أمام نظرتها المحتارة تماماً، وشدها إلى ذراعيه، ويداه على خصرها: «قد تكون هذه الجزيرة بعيدة عن الطرقات المأهولة، لكنها ليست متخلفة. توجد فيها صيدلية، ونستطيع أن نحصل منها على الأقراص المناسبة».

أحست أن جسمها يتصلب رفضاً: «لا!».

قد يكون اقتراحه عملياً لكنه ليس رومانسياً.. وهي مصممة على أن تحتل الرومانسية الصدارة.. كما أنه من غير المحتمل أن تحمل. فالتحضير للحمل يتطلب بعض الوقت والتحضير، وأكملت بحزم: «لا، لا داعي! فالوقت آمن جداً».

وكيف لها أن تعرف الوقت الآمن في دورتها؟ إنها لم تفكر أبداً بهذا.. ولا احتاجت لأن تفكر فيه.

لكنها أحست بوخز ذنب مستمر حين صدق كلامها.

- إذا كنتِ تقولين هذا حبيبتي، فهذا جيد بما يكفي لي! والآن، أعتقد أن علينا أن نستحم ونرتدي ملابسنا، وإلا سنبقي ميرسي والغداء في الانتظار. هل تأتين معي؟

- سأكون معك حالاً!

لم تكن جائعة.. لكن، طلبا من مارسي تقديم الطعام في الساعة الواحدة، ومن الفظاظة ألاّ يظهرا وقت الغداء، وشعرت بالتعاسة لفكرة عدم الحمل منه. لكن، يبدو أنه يعارض فكرة تأسيس عائلة. ولو خيّرت بين زواجهما، وبين نسل كامل من الأولاد من أي رجل آخر على وجه الأرض، فستختاره هو. وفي كل مرة!

***

٨ - سمّ الأفعى

سألت ماتي: «هل يجب أن نذهب إلى هذا الاحتفال الليلة؟».

وبدت متوترة قليلاً، كما لم تفعل منذ أشهر منذ عادا من الجزيرة.

فلمَ هذا المساء؟

أغلق باب غرفة النوم وراءه وبدأ يفك ربطة عنقه.. التوهج الدافىء الذي يشتعل في قلبه كلما شاهدها، أمسى شعوراً ملازماً، بحيث لم يعد يفكر فيه، بل يتقبله كجزء من حياتهما معاً.

طبع على خدها قبلة كالعادة، ورد عليها: «هذا ما أخشاه!».

بدت مبهجة للنظر، كالعادة، وهي ترتدي ثياباً سوداء.. رمى ربطة عنقه على السرير المزدوج الضخم، ولحقت بها سترته.

- إنها إحدى أهم المناسبات الخيرية في لندن! وأنا عضو في اللجنة، كما تعلمين.

فك قميصه وخلع بنطلونه.

- يجب أن نحضرها!

لاحظ تكدر فمها وهي تجلس أمام المرآة، تمد يدها إلى أدوات الزينة.. ليس من عادة ماتي أن تتهرب من حفلات الكوكتيل. تقتضي هذه المناسبة التجول لنصف ساعة أو أكثر، وهي تمسك كأس عصير وتتحدث أحاديث تافهة.

ولقد برزت في كل المناسبات الاجتماعية.. لكنها تبدو أكثر

www.elromancia.com

سعادة حين تغلق بابها على نفسها مع عمل له صلة بالماضي. إنه واثق من هذا!

زوجته، لثلاثة أشهر، لأنه لم يحتسب الشهرين اللذين عاشا خلالهما منفصلين، أصبحت فيهما أفضل مضيفة في لندن.

ونظر بإعجاب إلى كتفيها النحيلتين المكتملتين.

أصبح الآن على استعداد لأخذ دوش، وتقدم ليقف خلفها. كانت قد استحمت، وخصل شعرها الكستنائي اللماع لا تزال مبللة قليلاً.

والتقت عيناه المرآة.. هل هما مضطربتان؟ بالتأكيد لا! لكن كيف له أن يعرف؟ فهي لم تعتد أن تأتي إليه حين تواجه المشاكل!

وإذا واجهت ماتي مشكلة فهي بكل بساطة تنكب عليها، وتحلها مهما كانت.

وضع يديه على كتفيها: «استرخي!».

وأخذ يدعك عضلاتها المتوترة.

لعلها ببساطة متعبة، بعد يوم طويل شاق.

ـ على الأرجح أننا سنضجر كثيراً.. لكن، علينا أن نثبت وجودنا ولو لفترة قصيرة. بعدها، نذهب لتناول العشاء في مطعمنا المفضل.. هل يعجبك هذا؟

أصبحت يداه رقيقتين، تلامسان بشرتها الدافئة.. وبدا صوتها مختنقاً: «أنا بخير، حقاً أنا بخير! سيكون العشاء جيداً».

كانت، كالعادة، جميلة متجاوبة. بدأت بشرتها المعطرة ترتجف، ورموشها الطويلة المتشابكة ترتعش.. من كان يعتقد أن الثياب المتسعة لهذه الفأرة الرمادية الصغيرة، تخبيء جسداً بهذه الإثارة؟ لقد أذهلته هذه الفكرة دوماً.

وتحرك نحوها، وقال: «لا يهم لو تأخرنا قليلاً».

فالتمع وميض أمل في عينيها: «لا؟ هل أنت واثق من هذا؟».

ـ جداً!

وعلقت أنفاسه في رئتيه وهي تستدير فوق الكرسي.. وتوترت كل ذرة من جسمه، وهو يلف ذراعيه حولها ويرفعها بلطف لتقف: «إذن، فلنتحمل العواقب!».

شهق، وتراجع قليلاً عنها وأنفاسه ترتجف: «هذا سحر! ما تفعلينه بي سحر صرف يا ماتي..!».

لم يبدُ أنه صوته، بل صوت رجل تتملكه مشاعر عميقة مجنونة.. ما من امرأة أخرى أفقدته سيطرته على نفسه من قبل.

ما من امرأة أخرى.. لمعت هذه الفكرة في دماغه كخيط من الفضة الخالصة، واخترقت ضبابة الرغبة التي غشت دماغه، وحاول أن يمسك بها، لكنها انزلقت بعيداً وكأنها من الزئبق..

ما من أمرأة أخرى سوى ماتي! ماتي.. زوجته! المرأة التي دخلت حياته وحولتها بسحر ساحر، وأحدثت فيه تغييراً بدأ يفهمه كما يجب، ويرحب به.

فكرت ماتي: لقد تأخرا كثيراً، ونظرت حولها. كان المكان مكتظاً بالأثرياء، وأصوات أحاديثهم وقهقهاتهم ترتفع في المكان.

أخذ جايمس كأسين من العصير من خادم يحمل صينية يدور فيها، وقال: «لا أريد أن أتركك، تبدين جميلة جداً! لكننا مضطران! سنتجوّل قليلاً في المكان وسألقاك في الخلف بعد نصف ساعة، لا أكثر! ونذهب إلى العشاء، بعد ذلك».

كان في عينيه نظرة الرضى الذي يشعران به دائماً، بعد كل لقاء حميم. فكرت ماتي بهذا وهي تراقبه يبتعد نحو الجمع. هل قال جميلة؟ إنها تقوم بما في وسعها.. كان الثوب الّذي ترتديه بلون الصدأ

من الحرير، وهو أحد الأثواب التي أصرت عليها داون أن تشتريها.

وعما قريب.. لكنها لن تستطيع أن ترتديها عما قريب.

وهذا هو سبب عدم رغبتها في المجيء إلى هنا الليلة. لأنها يجب أن تقول له إنها حامل!

لقد أكد لها طبيبها ذلك هذا الصباح. إنها حامل في شهرها الثالث، ولا بد أن هذا حصل منذ أول مرة في باربادوس.. المرة الأولى التي لم يستخدما فيها الحماية، وأكدت له أن لا عواقب لهذا.. والأسوأ، أنه وثق بها، وهذا ما جعلها تشعر بالذنب!

لم تكن تعرف كيف سيتلقى الخبر.. وهذا ما ستكتشفه عاجلاً أفضل من آجلاً.

إنه لا يريد أولاداً، ولا تريد أن يكون الولد الذي تحمله غير مرغوب فيه من قبل والده!

إنها تشعر منذ الآن بغريزة الحماية للحياة الجديدة داخلها.

لكن، ما إن يعتاد على فكرة الأبوة، حتى يكون سعيداً بذلك. إنّ هذا الرأي المتصلب ضد العائلة، يعود إلى طفولته، إنه خائف من أن يكون كأبويه، ألاّ يتمكن من الالتزام بولد.. وهو لا يريد أن يجني على أي ولد بنوع التربية التي حصل عليها.

أعادت شرابها الذي لم تمسّه إلى صينية يحملها ساقي مرّ بها، وعزّت نفسها بأنها تعرفه أفضل مما يعرف نفسه.. إنه لطيف ومهتم وهو قادر على الحب.

لكنه لم يتعلم أن يحبها، طبعاً، وتعرف هذا.. إنه معجب بها ويحترمها ويتمتع بحياتهما الزوجية.. لكنها لم تلامس مشاعره.

لكن الأمر سيكون مختلفاً مع ولده، سوف يحبه بالطبع! أولن يفعل؟

اختلطت بمجموعة من الناس وراحت تبتسم، مشوشة التفكير، للذين تعرفهم ولا تعرفهم؛ ثم نظرت حولها تبحث عن جايمس.. عشرون دقيقة بعد، وسوف يكونان في الخارج، ولسوف تزف له الخبر مع العشاء. وكل ما ترجوه هو أن يتقبّل المسألة.

- وحيدة؟ يا للعار!

استطاعت ماتي أن تتعرف إلى ذلك الصوت الحاد، وأجبرت نفسها على الاسترخاء، ثم استدارت ببطء وهي ترسم ابتسامة فارغة على وجهها: «فيونا..».

- لقد تخلى عنك جايمس كعادته، ألم يفعل؟

حاولت ماتي ألاّ تجعل كلام فيونا يعكّر صفو أمسيتها، فلعل المرأة اللعينة لم تسمع عن غياب جايمس المطول في إسبانيا بعد الزواج مباشرة. لكنهما أمضيا معاً ذاك الشهر المثالي على الجزيرة، كحبيبين... سرعان ما استدركت ماتي وصححت بصمت: حسناً، حب من جهتها فقط!

- إنه يقوم بجولته، ويؤدي واجبه!

لكن فيونا تجاهلت هذا.. ونظرت إلى ماتي من رأسها حتى أخمص قدميها.

- محاولة جيدة للتغيير، لكنها ليست جيدة بما يكفي! لا تكفي للتمسك برجل مثل جايمس، فهو يصر على الأناقة بالنسبة لنسائه كما أعرف!.

قاومت ماتي رغبتها في أن تمد يدها وتصفع وجه فيونا الجميل المتكبر.. لعل فيونا تنحدر من عائلة رفيعة المستوى، لكن الفستان الذي ترتديه، يخبر قصة مختلفة.. فقد اختارته مكشوف الصدر، قصيراً وضيقاً جداً.

بدت فيه أشبه بعاهرة. ومع أنها لم ترغب بالزواج من جايمس، إلا أنها لا تطيق أن تراه مع غيرها.. ولم تكن ماتي مستعدة لأن تقف هنا وتسمع كلامها اللاذع.

سألت بابتسامة حلوة: «الأناقة؟ لقد أسأت استخدام الكلمة إذا كنت تقصدين طريقة لباسك.. فكلمات الوقاحة، محاولة لفت الأنظار بالقوة، الابتذال، هي أقرب لما أنت عليه!».

وصدم هذا فيونا، صدمها فعلاً.. فثار غضبها، ولم تستطع تحمل النقد اللاذع، هي التي لطالما استمتعت بتوجيهه إلى الآخرين! وضاقت العينان الباردتان، ونفث الفم الأحمر القرمزي: «أنت لا تعرفين شيئاً! إنه لا يريدك أنت، بل أنا! ودائماً أنا! لقد تضايق كثيراً حين تركته.. أتعلمين لماذا فسخت خطوبتي معه؟ لا؟ إذن سأقول لك! قال إنه لا يريد أولاداً أبداً، حتى أنه هدد، أنني إذا حملت صدفة، سيتركني أربيه لوحدي. وفي مثل هذا الموضوع لا مجال للمناورة، لذا ألغيت الزواج!».

زال شعور الرضى الذي أحست به ماتي حين دافعت عن نفسها، وأحست بالغثيان.. مع أن فيونا لا تبدو من النوع الذي يقدّس شعور الأمومة! لكن، ماذا تعرف هي؟

ترجع صدى كلماتها في ذهن ماتي.

وانخفضت اللهجة القاطعة قليلاً: «على أي حال، لقد أعدت التفكير، وأنا لا أزال مجنونة بحبه مثلما هو مجنون بحبي! وما إن يعرف أنني غيرت رأيي، وأنني لا أمانع أن أكون من دون أولاد، سيرميك لأنك لست سوى الثانية المسكينة.. وإذا لم تصدقي، فراقبيني! سأثبت لك هذا!».

وأثبتته. كان أمراً لا يصدق! لكنها فعلت هذا بالضبط!

وفكرت ماتي بهذا يائسة، ووجدت جداراً تستند إليه. ألم تشك دائماً في أنّ جايمس لم يتجاوز بعد خسارته للمرأة الوحيدة التي أرادها زوجة له؟

كانت تأمل أن يجعله الوقت والسعادة ينسى، وأن يحبها في النهاية.

لكن مراقبتهما معاً، أعلمتها أن هذا لن يحدث.

ولا بد أن فيونا قاطعته وهو في طريقه ليأخذ ماتي.. ووقف كلاهما قريبين من بعضهما، قريبين جداً.. فبدا لها وكأن لا وجود لغيرهما في هذه الغرفة المزدحمة.

كان رأسه الأسود ينحني ليسمع ما تقوله، وبدا سعيداً. ولان فمه بانحناءة جميلة تذكّرها جيداً بالنظرة التي يرمقها بها وهو في الفراش!

إلا أنه ليس معها الآن، أليس كذلك؟ ربما بجسده لكن ليس بقلبه أو رأسه! لا بد أنه كان يتصورها فيونا، حبه الحقيقي والوحيد، وهذا أقسى ما يمكن أن تتحمله!

رأت فيونا ترفع يدها، وتضع أصابعها على فمه.. ورأته يأخذ تلك اليد بيده، ثم سد أحدهم عليها الرؤية، وأخذ يحدثها وهو يضع في يدها كأساً من العصير.

حاولت ماتي أن تخرج من الكابوس، لكنها لم تستطع سوى أن تهز رأسها، آملة أن يعتبر الجميع هذا مجاملة اجتماعية مهذبة.. وتعرّفت بشكل غامض إلى وجه الرجل المتوسط العمر، لكنها لم تستطع أن تتذكر اسمه.. كان يتحدث عن حفلة عشاء أخرى، ويذكر الضيوف الآخرين.. إذن لا بد أنهما التقيا هناك، وتمنت أن يبتعد عنها.

وفجأة أحست بيد جايمس تمسك مرفقها: «مساء الخير يا ليستر، أخشى أن أكون مضطراً إلى مقاطعتكما!».

وارتجفت ماتي، فأخذ العصير الذي لم تمسه من يدها وتخلص منه: «أمامنا موعد عشاء، وأنت تعرف كيف هي الأمور!».

بدا سعيداً جداً، مما آلمها، هل هذا بسبب ما قالته فيونا له؟ لقد أعطتها المرأة الأخرى تحذيراً منصفاً على أي حال، وأشاحت نظرها عنه، وهي تعرف أن عليها أن تقسي قلبها وتكبت إحساسها نحوه.

كانت السماء لا تزال مضيئة في الخارج، في تلك الأمسية الجميلة من حزيران.. نادى جايمس سيارة أجرة، فقالت ماتي: «لا أريد العشاء، أفضل العودة إلى البيت مباشرة!».

فسألها متعجّباً: «لماذا؟ هل حدث شيء؟».

بعد الحديث الحميم، والرأس على الرأس مع حب حياته، بدا مستعداً لأن يكون صريحاً معها.

صعدت إلى سيارة الأجرة وهي تقول: «لأنني متعبة كثيراً!».

سيكون لديها وقت كافٍ لتقول له ما يتعبها بالضبط، بعد أن تختلي به.. إنها حامل، وإذا ما هدد فيونا بالهجر الفوري في حال حملت، فماذا تنتظر منه أن يقول لها؟

لا شيء أبداً! لم تكن تدرك أن مشاعره ضد الأولاد عميقة وقوية هكذا. إنه مريض!

مع ذلك، لا تزال تحبه.

وحاولت جاهدة أن تقسي قلبها، وحشرت نفسها في الزاوية البعيدة وهو ينضم إليها بعد إعطاء السائق عنوان بيتهما في بيلغرافيا. وبدا قلقاً، فقال لها: «إذا كنت مريضة، فقولي لي!».

هل هذا قلق؟ إنها تُسيء فهمه، إنه ببساطة محتار، ولعله منزعج. كان يتوقع الإذعان الأعمى منها. لكن، ما من إذعان أنثوي من جهتها، وما من مزاج متقلب، ولا شجار.. وهو يحصل على ما يريد

متى شاء.

قالت عبر أسنانها: «لست مريضة، بل متعبة فقط كما قلت لك.. هل كان حديثك مع فيونا شيقاً؟ أعتقد أنها بدت ملفتة للنظر، بشكل خاص هذه الأمسية!».

لن تقول له إنها بدت كبنات الهوى خرجت لتصطاد فريسة! ولن تحط من قدرها بترك غيرتها تظهر، فلديها كرامتها.

ـ آه..

صوته المنخفض، قال الكثير.. ولم يحتج إلى إضافة المزيد وسمعت نبرة الرضى في صوته.. وأحست بتوتر جعل الجو متذبذباً بينهما.

لا بد أن الحديث الحميم الذي ذكرته لتوها، كان مرضياً جداً.

كان السير خفيفاً نسبياً. وبينما كان يحاسب السائق، دخلت المنزل الصامت وتوجّهت مباشرة إلى غرفة الجلوس. ذكرها منظر الزهور بالوقت الجميل الذي قضياه في باربادوس.. فالزهور التي أصرّت على وجودها منذ أصبحت سيدة المنزل، أصابتها الآن بالتوتر.

إنها تمثل العار الذي تحولت إليه حياتها.

بعد لحظات، لحق بها جايمس، وخلع سترته السوداء. كان قميصه الأبيض الرقيق يلتصق بكتفيه العريضتين، وقد وضعه تحت بنطلونه الضيق.

وأغمضت ماتي عينيها فالنظر إليه يؤلمها. هل سيغسل يديه منها حقاً لأنها حملت، وكسرت قوانينه، مع أنه يلام مثلها؟ وتذكرت عنف كلمته «اللعنة لا!»، حين ذكرته أنه لم يتخذ احتياطاته في أول مرة، وافترض أنه كان عليه أن يفعل.

على أي حال، لقد أكدت له أن ما من خطرّ بأن تحمل في ذلك

الوقت.

اقترب منها: «أنت شاحبة جداً يا ماتي، هل يساعدك كوب من الحليب الساخن؟».

هزت رأسها نفياً، فهي لا تريد لطفه ولا اهتمامه الزائف، إنها تريد شيئاً حقيقياً، شعوراً حقيقياً. وهذا ما يجب أن تحصل عليه حين تزف إليه الخبر.. طريقة تلقيه الخبر ستقرر مستقبلها معه، ومستقبل طفلهما.

مع ذلك، تذكرت ما قالته لها فيونا بالضبط، فكانت واثقة تماماً ممّا سيكون عليه ذلك المستقبل.

فجأة، بدأت ساقاها ترتجفان. وتراجعت خطوة إلى الوراء، لتغوص في إحدى الأرائك المغطاة بقماش مطرز..

ـ حين طلبت يد فيونا، هل قلت لها إنك لا تريد أولاداً؟

كان يضيء المصابيح الموجودة على الطاولات الصغيرة، ويغلق الستائر الصيفية الرقيقة فوق النوافذ، بعد أن حل الظلام في الخارج. لكنه توقف وكأنه تجمد مؤقتاً، ثم استدار ببطء، وبدت تعابير وجهه باردة هادئة.

ـ في الواقع، أجل. لكن، لم السؤال؟

كان صوته أكثر برودة من عينيه الفضيتين.

فقالت بصعوبة: «لأن هذا مهم!».

كانت تعرف أن فيونا قالت الحقيقة. فهي تعرف وجهة نظر جايمس حول هذا الموضوع، لكن الفارق الوحيد هو أنه لم يحذرها من الحمل «صدفة».

لكن الأمور تغيرت وهو الذي طلب إكمال الزواج.. وعدا المرة الأولى، اتخذ كافة الاحتياطات للحؤول دون الإنجاب.

فجأة، وقفت على قدميها. عرفت أن مسار حياتها سيرتسم في هذه اللحظة وأن كل شيء يتوقف على ردة فعله.

فاستجمعت شجاعتها وقالت: «أريد الطلاق!».

أراحها الثبات غير المتوقع في صوتها.. ستتمتع بالقوة لتفعل هذا.. لقد خشيت ألاّ تستطيع، وأن تضعف وتتوسل إليه أن يستبقيها معه، وأن يحب طفلهما حتى ولو لم يستطع أن يحبها.

وقالت له بصوت جاف: «لقد تأكد حملي هذا الصباح، ولا داعي لأن تقول لي إنك ستهجرني لأنني خالفت قوانينك الثمينة، لأنني سأتركك غداً. لا أريد لطفلي أن يعيش مع أب لا يريده، مع شخص مريض مرير ومعقّد مثلك!».

وسارت نحو الباب: «سأستخدم إحدى الغرف الفارغة هذه الليلة، وسأكون ممتنة لك إذا لم تحضر فيونا إلى هنا قبل أن أرحل».

استدارت تنظر إليه لآخر مرة، لم تستطع تخيل ما سيحدث إن طلب منها ألاّ ترحل.. قد تنهار! لكنه لم يفعل، كانت ملامحه وكأنها منحوتة من حجر، وعيناه قاسيتان.

تركها تذهب من دون أن ينبث ببنت شفة، وكرهته في تلك اللحظة بقدر ما أحبته دائماً.

خرجت وأقفلت الباب بهدوء خلفها.

لا حاجة لأن يقول شيئاً، بعد أن أنجزت هي عمله القذر.

***

٩ ـ الحدّ الفاصل

في طريقها إلى الطابق الأعلى لتحضّر فراشاً لها في غرفة أخرى، غيرت رأيها.

لِمَ الانتظار حتى الصباح؟ إذا كانت سترحل، فمن الأفضل أن تفعل هذا الآن! فجايمس لم يلحق بها ليتوسل إليها أن تبقى! وبعد انتهاء معاملات الطلاق، سينتهي زواجهما.

كاد عدم اكتراثه يصم أذنيها.

وستكون السيدة بريغز موجودة في الصباح لتقدم الفطور وتسأل عمن سيحضر للغداء ومن لن يحضر. إذا رحلت الآن، ستوفر على نفسها عناء الإجابة. فلا تضطر لأن تقول لها إنها لا تريد تناول الفطور، أو أي وجبة طعام أخرى في هذا المنزل بعد اليوم!

وما من حفل عشاء قريب، ليقلق المرأة المسنة.. وحين يكون هناك مناسبة، سيسرّ فيونا أن تنظمها.

في الغرفة التي تشاركتها مع جايمس، وضعت قدر ما استطاعت من أشيائها في حقيبة صغيرة.

بعد تفحص محتويات حقيبة يدها بسرعة، تسللت تنزل السلم كاللص، وكانت على الرصيف بعد خمس دقائق. لكنها أحست أن قدميها مثبتتان بالأرض، وكأن الجهد الجسدي الذي بذلته للخروج من حياته أرهقها.

بقيت تأمل أن يلحق بها، أن يتوسل إليها أن تبقى، أن يقول لها إنه لن يستطيع العيش من دونها وإنه بدّل رأيه حول تأسيس عائلة.

لكنها كانت تطلب المستحيل.

أخذت نفساً عميقاً، وأجبرت نفسها على متابعة السير، وهي تتمنى لو كان لديها التعقل الكافي لتغير حذاءها المرتفع الكعبين، إذ ليس لديها فكرة إلى أين ستذهب.

لم يتظاهر جايمس يوماً أنه يحبها.. ولماذا سيفعل وهو لا يحبها؟ فهي ليست بالنسبة له، أكثر من مرضية غير متطلبة، شخص يشاركه فراشه ويرضي غرائزه؟

لم يقل شيئاً حين رمت قنبلتها، بل حدق فيها ولم يزعج نفسه بأن يناديها حين خرجت من الغرفة.

بعد حديثه مع فيونا هذا المساء، لا بد أنه ارتاح لرحيلها، هي والطفل الذي تحمله، الطفل الذي لا يريده بكل تأكيد.

كان الظلام مخيماً، والجوّ دافئاً في تلك الليلة من ليالي حزيران.. وسارت بكل بساطة، وهي تتذكر كابوس هذا المساء.

ومن دون أن تعي ذلك، وجدت نفسها أمام مجمّع الأبنية السكنية حيث يعيش والدها مع زوجته الجديدة.

إنه مكان مناسب لقضاء الليل.. هذا ما فكرت فيه حين أدركت مكانها. ففي غياب الأم، ها هي تلجأ إلى الأب، تحاول غريزياً أن تعود إلى الكتف الدافىء الذي عرفته قبل قبولها الزواج من جايمس.

حين فتح والدها الباب كان يرتدي روباً رقيقاً فوق بيجامته وخفاً قديماً في قدميه، وبدت الحيرة على وجهه.

ـ هل أستطيع البقاء هنا هذه الليلة؟

بدا صوتها غريباً، وحاولت جهدها أن تتماسك لئلا تنهار.

وسارت عبر الردهة المربعة الشكل إلى غرفة الجلوس المستطيلة والمزينة باللون الأخضر الشاحب، مع لمسات خفيفة من اللون العاجي. كان أثاثها عبارة عن أرائك صغيرة مريحة نقلها من المنزل القديم في برينغتون.

لقد زارت المكان من قبل، لكنها لم تزره وهي ترتدي ثوب سهرة وتحمل حقيبة قماش قديمة منتفخة وحقيبة يد، والدموع الجافة تملأ عينيها، دموع لم تعرف متى ذرفتها.

لحق بها ادوارد قائلاً: «بالطبع تستطيعين البقاء!».

لكنه لحقها ببطء، وكأنه يسير فوق حقل ألغام.

ـ بإمكانك البقاء قدر ما تشائين، لكن هلاّ قلت لي السبب؟

استدارت لتواجهه، تاركة الحقائب التي تحملها تقع على الأرض.

ـ لقد تركت جايمس!

كلامها هذا جعل الكابوس الذي حدث هذا المساء حقيقياً، وأضفى عليه حدة ووضوحاً مؤلماً لا يحتمل.

مررت يدها على عينيها: «لم ينجح زواجنا، ولم يكن لينجح».

كيف تستطيع أن تقول إنه نجح في حين لم يتوقف عن حب فيونا؟

ـ لماذا لا تجلسين قبل أن تنهاري؟ هل أحضر لك ما تشربينه؟ قهوة أو شاي؟

تجاهلت سؤاله، وبدت عيناها متورمتين وهي تنظر في كل أنحاء الغرفة: «أين أيملي؟».

لقد أحبت زوجة أبيها الجديدة التي حلت، لسنوات، مكان أمها التي هجرتها. ووسط العاصفة العاطفية التي تحيط بها الآن، تشوقت إلى مواساة شخص مألوف.

لكن والدها قال: «نامت باكراً، فقد خططنا للذهاب إلى «يورك»

غداً! وسنبقى أيام عدة هناك لنستمتع بالمناظر. لكن، يمكننا تأجيل الرحلة. فهذا ليس مهماً، ما يحدث معك أهم!».

فجأة، وبكل ما تملك من تصميم استجمعت قوتها، وقالت: «لا!».

لا يحق لها أن تفرض بؤسها على أبيها وزوجته! لن تكدر حياتهما بمشاكلها. تستطيع التعامل معها بنفسها!

وأكدت له: «سأمكث هنا لهذه الليلة فقط! غداً سأغادر لندن، ولن أسمح بأن تغيرا خططكما من أجلي».

ثم قالت: «أرغب في فنجان شاي».

وسارت إلى المطبخ من دون انتظار رده. أحست أنها هادئة الآن، وكأن لا شيء يمكن أن يمسها، وكأنها تعيش داخل فقاعة زجاجية حيث هي آمنة مما يمكن أن يؤلمها.

بعد ملء الإبريق الكهربائي وضعته في المقبس. قال لها والدها، وهو يقف وراءها: «لست مضطرة لأن تقولي لي ما الذي حدث، إذا لم ترغبي بذلك.. لكن قولي لي، هل آذاك؟ هل كان فظاً معك؟».

فردت بصوت جاف: «لا».

كان والدها يعني الأذى بالمعنى الجسدي. لكن سؤاله بدا سخيفاً، لأن جايمس ليس من النوع العنيف، ما عدا فيما يخص مشاعره العميقة المشبوبة نحو فيونا.

وهل من الفظاظة ألاّ يحبها؟.. إنها لا تعتقد هذا، فهو لا يستطيع منع نفسه من ألاّ يحبها، وأن يحب فيونا بدلاً منها.. فالحب أعمى، الحب يجعل الحبيب مركز الوجود، وبقية العالم ليسوا سوى أناس من كرتون، أناس لا أهمية لهم.

قالت: «لم تنجح علاقتنا. ولا داعي حقاً لتقلق، أو تدع هذا يؤثر

على علاقتك الجيدة مع جايمس!».

حضّرت الشاي وصبته، وأخذ ادوارد كوبه إلى الطاولة حيث جلس متثاقلاً. وانضمت إليه ماتي ليسألها: «أين ستذهبين؟ وماذا ستفعلين؟».

ـ ستجد لي الوكالة ما يكفيني من عمل، ويمكنني العمل في أي مكان، وتعرف هذا! أما إلى أين؟..

هزت كتفيها النحيلين: «.. سأدعك تعرف حين أعرف أنا».

قال ادوارد بحزم: «ستسّرني مساعدتك».

قاطعته مجدداً: «لا..».

يجب أن تقف على قدميها لوحدها.. تحتاج إلى هذا للخروج من محنتها، والسيطرة على حياتها ومستقبلها.

ـ مالياً أنا بخير، كما تعرف. وآمل أن أجد مكاناً أستأجره في أسرع وقت ممكن. سأبقى على اتصال دائم بك، وكما قلت لك، يجب ألا تقلق حقاً.

فقطب ادوارد جبينه: «وكيف يمكنني ألاّ أقلق؟ أعترف، أن بعض الشكوك ساورتني حول زواجكما في البدء، إذ جاء بعد وقت قصير من مهزلة فيونا، وطول غياب جايمس من دون حاجة في إسبانيا. لكن حين عدتما من شهر العسل المتأخر، عرفت أن كل شيء على ما يرام.. ولقد فقد جايمس شيئاً من حدته، ولم أشاهدك بمثل ذلك الإشراق من قبل».

أمسك يديها عبر الطاولة وشد عليهما: «وها أنت، تبدين مصممة على رمي كل شيء ماتي! كل الزيجات تمر بأوقات سيئة. لكن الصواب هو أن تبقي معه. لا يمكنك أن تتخلي عن شيء جيد بل يجب أن تعملي جاهدة لإعادته إلى السبيل القويم. لم لا تعودين غداً،

وتجلسين مع جايمس وتتحدثان وتحاولان حل أي مشكلة بينكما؟ أجرؤ على القول أنك لا تنظرين بعين الرضى لهذه الفكرة الآن.. لكن على الأقل، عديني بالتفكير بها؟».

بلطف خلّصت أصابعها من قبضته القوية، ووقفت. بدا قلقاً جداً، وما كان عليها حقاً أن تأتي إلى هنا وتخبره بكل هذا.

وقالت تعده: «سأفكر بالأمر».

حتى وإن فكرت بالأمر إلى الأبد، فلن يشكّل هذا فارقاً يذكر، ولن تتغير الظروف. لكنه لن يعرف هذا! على الأقل، كانت حذرة بما يكفي لئلا تجهر بالحقيقة.

وتمكنت من أن تبتسم بقلق: «سأفكر بالأمر، لكن فقط، إذا وعدتني بشيء في المقابل».

ـ وما هو؟

كان أكثر إشراقاً الآن، وظهر شيء من الارتياح في ابتسامته.. وتنفست ماتي بارتياح أكبر. إنها تحب والدها وتكره فكرة قلقه.

ـ أن تسافر أنت وإيملي، كما خططتما، غداً، وأن تنسيا مشاكلي. سوف تحل، بطريقة أو بأخرى.

وابتسمت ابتسامة صغيرة: «أعرف أنك تظنني لا حول لي حين يتعلّق الأمر بما يلزمه العقل السليم. لكن، صدقني، لقد تغيرت! والآن، متى ستعودان؟».

ـ يوم الجمعة القادم، على الأقل.

ـ إذن سأتصل في ذلك المساء.. اتفقنا؟

ـ اتفقنا!

ووقف على قدميه: «حان وقت النوم. تذكري وعدك، فكري طويلاً وجاهدة قبل أن تقومي بأي خطوة قد تندمين عليها».

فقطعت ماتي له وعدها، إذ لم يكن هناك ضير من التفكير برؤية جايمس، والجلوس معه ومناقشة الأمور. . لكن التفكير لم يصل سوى إلى هذا الحد. . أما ترجمة الأفكار إلى أعمال فستكون مضيعة للوقت، لأن الحقيقة هي الحقيقة ولا شيء يغيرها.

واستسلمت لنوم منزعج مع الفجر، ولم تستيقظ إلا حين سمعت والدها وإيملي يتحركان في المنزل. . كانت الساعة السادسة من يوم صيفي دافىء جديد.

تذكرت فجأة نظرة القلق على وجه أبيها في الليلة السابقة، فخرجت متعثرة من السرير وتوجهت إلى حمام الضيوف. . في هذا الوقت، لا بد أن إيملي عرفت ما جرى، وستقلق بدورها. . وستكون ماتي على وشك تحطيم رحلتهما إلى «يورك» التاريخية.

هذا ببساطة لن يفيد، إنها محبوبة من كليهما، وتعرف هذا. . لكن هذا لا يعطيها الحق بتعكير صفوهما بمشاكلها.

استحمت بسرعة، وجففت وجهها، وفي عجلتها لتغادر، تخلت عن تبرجها.

وهي تسحب الثياب من حقيبة الكتف، راحت تتذكر ما قالته لجايمس في الأمسية السابقة. هل بالغت في ردة فعلها؟ هل تكلمت بجنون، لأنها حامل؟ لقد سمعت، أو قرأت، في مكان ما أن الحمل يمكن أن يثير أعصاب المرأة، والطريقة التي تصرفت بها كانت بعيدة جداً عن طبيعتها!

وهي مستغرقة في التفكير، أخرجت سروالاً أبيض اللون، ثم دست بلوزة صفراء بلون الليمون تحت خصره. . بعض الأشياء التي قالتها له، جعلتها تشعر بالخجل من نفسها.

كما أنّ ما حدث غلطتها بقدر ما هي غلطته. . ما كان عليها أن

تقبل طلبه في الأساس! وبالتأكيد ما كان عليها أن تسمح له أن يستغلها ليخمد رغبته في النساء! حبها له لمدة طويلة سلبها عقلها السليم، وجعلها تصدق أنه سيحبها يوماً ما.

دست قدميها في خف مسطح جلدي، وقرصت خديها لمزيد من اللون، ثم توجّهت نحو المطبخ.

كان والدها وإيملي في ثياب النوم، جالسين إلى الطاولة يشربان الشاي وأخذت ماتي نفساً عميقاً وهي تتذكر يوم تزوجا. . بدت إيملي يومها جميلة ووالدها فخوراً وراضياً. إنهما يعيشان حياة جيدة معاً، ولن تفسدها عليهما.

بالطبع، تستطيع إخبارهما عن زواجها المتفق عليه. وسوف يفهمان، ويقفان إلى جانبها، ويزداد قلقهما. لكن من الأفضل ألاّ تقول شيئاً، وتتركهما يعرفان ما حدث فعلاً رويداً، رويداً. ستخبرهما. . بعد أن تستقر في مكان ما، ويعرفان أنها تدبرت أمرها.

ـ ماتي! أوه، عزيزتي!

وقفت إيملي فوراً ولفت ذراعيها بحنان حول ماتي: «لقد أخبرني ادوارد. . ماذا نستطيع أن نفعل لنساعد؟».

فأجابت ماتي بخفة: «لا شيء، ما عدا الاستعداد لرحلتكما بينما أحضر أنا الفطور».

فأمسكت بها إيملي وعيناها القلقتان تتأملان وجهها.

ـ ليس وأنت في مثل هذه الورطة!

قالت ماتي بحزم: «بلى، تستطيعان هذا! أحس أنني أكثر هدوءاً هذا الصباح. ما كان عليّ أن أحضر إلى هنا، بل أن أذهب إلى فندق بدلاً من أن أشكو لكما همومي وأعكر صفوكما!».

قال ادوارد متردداً: «تبدين أفضل حالاً! هل أفهم من هذا، أنك

ستفين بوعدك حول بحث الأمور مع جايمس؟».

ـ أجل، سأذهب إلى البيت بعد أن تسافرا.. ألا تذكر الوعد الذي قطعته لي؟ اليوم هو يوم الأحد، ولن يكون في المكتب.

أجابت من دون وعي منها، ولا بد أنها اتخذت القرار في عقلها الباطن وهي ترتدي ثيابها. لا يمكن أن تتركه هكذا، من دون أن تعطيه فرصة ليعبّر عن رأيه ويحدّد موقفه.

كما أنها لم تقل له إنها لن تقبل شيئاً منه كتسوية للطلاق، أو إنها لا تتوقع منه أن يدفع نفقة الاعتناء بالطفل الذي لا يريده، وإنها تستطيع تدبر أمرها كأم وحيدة.. لم تقل له إنه لو أراد يوماً معرفة جنس المولود أو رؤيته، أو زيارته، فما عليه سوى أن يطلب.. وعلى الأرجح لن يفعل، لكنها ستعرض عليه ذلك!

ولسوف تعتذر كذلك على ما قالته.. لقد قالت له إنه مريض ومتشابك المشاعر، وإنه غير سوي. لكنها ستؤكد له، أنهما سيبقيان دائماً صديقين. ربما كان زواجهما مشؤوماً منذ البداية، لكنها لا تريده أن ينتهي بالكراهية والمرارة.

نظر ادوارد إلى زوجته: «حسناً، لقد وعدت! هل أنت واثقة من أنك ستجلسين مع جايمس لتتكلما بتعقل؟

ـ واثقة تماماً! والآن، هلاّ ارتديتما ملابسكما وتحضرتما للرحلة!

وذهبا لكن على مضض.. وقالت ماتي لنفسها إن عليها أن تحاول طمأنتهما بجهد أكبر.. حضّرت إبريق شاي طازج، وبيض مخفوق، وخبز محمص. ورسخت لديها القناعة بأن رؤية جايمس مرة أخرى هو الأمر الصائب الوحيد، وأنهما يجب أن يفترقا حبياً، وهذا أمر مهم جداً لها!

لن تفكر في أنه قد يطلب منها البقاء ويقول لها إنه يريد طفلهما،

وإن فيونا لن تحلّ مكانها.

كانت واقعية بما يكفي لتعرف أن الآمال الكبيرة ستقودها إلى مزيد من خيبة الأمل والعذاب.

***

بدت مسيرة العشر دقائق وكأنها لن تنتهي. حاولت أن تسرع، لكن ساقيها رفضتا أن تسرعا أكثر. ماذا لو لم يتأثر برحيلها المجنون وباعترافها، بحيث قرر أن يقضي بضع ساعات في المكتب، من دون أن يزعجه الهاتف، أو الفاكس؟

وبتفكيرها بالهاتف، لماذا لم يتصل بها؟ لا بد أنه عرف أنها بعد خروجها ليلة أمس، ستذهب إلى شقة والدها. لم يزعج نفسه بالاتصال والتأكّد من ذلك.

حتى وإن أخذ قولها إنها ستنام في غرفة أخرى على محمل الجد، ولم يزعج نفسه بالتفتيش عنها، لمحاولة مناقشة الأمور، فلا بد أنه أدرك الآن أنها غادرت المنزل!

كانت الساعة قد بلغت العاشرة حين بدأ والدها وزوجته استعداداتهما للرحيل.. مرت نصف ساعة رتبت فيها السرير الذي استخدمته، وهدأت نفسها بما يكفي لمواجهة جايمس، وتوديع الرجل الوحيد الذي أحبته يوماً، والاعتذار، من دون تحفظ، عن كل الأشياء السيئة التي قالتها له.

لكن هذا ما جاءت الآن لتصححه، أليس كذلك؟ قالت لنفسها هذا، حين وصلت أخيراً إلى الباب الأنيق.

لم تحتفظ بمفتاحها.. وقوّت عزيمتها، وضغطت على الجرس النحاسي اللماع، آملة ألا تسمعها السيدة بريغز مدبرة المنزل وأن يرد جايمس عليها.

أدارت ظهرها للباب الخشبي الصلب، ومسحت كفيها المتعرقين بجوانب سروالها، محاولة إرخاء عضلات كتفيها المتوترة.

اللعنة! حتى أسنانها كانت تصطك! ومهما حاولت، لم تستطع تحريك الأمل غير المعقول في حدوث معجزة ما، وفي عودة الأمور إلى طبيعتها.

وانفتح الباب! سمعته ينفتح، فأجبرت نفسها على اصطناع ابتسامة. لكن ابتسامتها تلاشت حين استدارت ووجدت فيونا.

ـ ماذا تريدين؟

لم تستطع ماتي أن تتنفس، كان الألم الذي يعتصر قلبها قوياً جداً.

لقد أحضر فيونا إلى منزله!

ورفرفت عينيها، وجف حلقها.. ألم تقل المرأة الكريهة إنه لن يضيع وقتاً في استدعائها.. وإعادتها إلى حياته، وفراشه، لأنهما ما زالا مجنونين بحب بعضهما البعض؟

بدت مثيرة جداً في تنورتها القصيرة التي تكشف طول ساقيها وكمالهما، وقميصها القطني الملتصق بجسدها.

حاولت ماتي أن تتكلم، أن تطلب رؤية زوجها، أن تقوم بمحاولة لتدفع المرأة وتدخل وتجده.. لكنها لم تستطع.

قالت فيونا بنفاد صبر متسرع: «اسمعي، لا تقفي هكذا كالبلهاء! ألم أقل لك إنه سيتخلص منك ما إن أقول كلمتي؟ لقد قال إنك قد تعودين زاحفة، وإذا عدت، عليّ أن أقول لك إن محاميه سيتصل بمحاميك. أنت غير مرغوب فيك هنا! لذا، اذهبي! إذا سمحت؟».

وأغلقت الباب بحزم في وجهها.

ببطء، استدارت ماتي وابتعدت متعثرة.. احست بالألم يعتصر فؤادها، لا شيء لها هنا.. لم يبقَ من زواجها القصير، ولا حتى

الصداقة! جايمس لن يهتم! لن يهتم لها أو لطفلهما!

ما كانت لتتصور أبداً أن الرجل الذي عرفته وأحبته لسنوات، قاسي الفؤاد هكذا!

إنها لم تعرفه حقاً! لم تعرفه أبداً!

* * *

www.elromancia.com

١٠ ـ حياة جديدة

مرت ستة أشهر.

جلست ماتي على حافة سرير المستشفى، مرتدية معطفاً دافئاً فوق فستان الحمل الذي وصلت فيه. سيصل والدها وإيملي، في أي وقت الآن ليأخذاها إلى الغرفة الخاصة التي أصرا على حجزها لها.

لم تعد قادرة على الانتظار لتأخذ ابنتها الطفلة من المستشفى وتعود بها إلى كوخها الصغير الحميم. لم تعد قادرة على أن تنتظر لتريها منزلها.

كانت ابتسامتها حنونة، وهي تبعد بلطف أطراف الشال الصوفي الذي يلف الصغيرة بين يديها، لتتأمل الوجه الزهري الصغير بعينيها.

قالت بصوت منخفض: «أنت طفلة الميلاد، فما رأيك باسم «نويل»؟ أوه.. فهمت! لا يعجبك كثيراً؟».

اتسعت ابتسامتها إلى ضحكة حين انفتحت العينان الزرقاوان ثم أغمضتا مرة أخرى.. كان فم الطفلة ورديا بلون توت العليق البري.

ـ أتعتقدين أنه بسيط جداً، ولن يحلّ الميلاد حتى الغد؟ حسناً، انسي نويل! ما رأيك باسم كلوي؟ إنه جميل ألا تظنين هذا؟ أتعرفين شيئاً؟ حين كنت صغيرة، لطالما أحسست بالأسف على الأولاد الذين يصادف عيد ميلادهم مع عيد الميلاد. لا أرى سبباً يمنع من أن يكون لك عيديّ ميلاد، واحد حقيقي والآخر اصطناعي!

ونامت الطفلة، فطبعت ماتي قبلة خفيفة على الجبين الصغير. كان عمرها ثمان وأربعين ساعة، وثمة شبه كبير بينها وبين أبيها.

خلال الأشهر التي تلت ذلك المساء المحزن من شهر حزيران، نجحت ماتي في عدم التفكير إطلاقاً بجايمس. وكانت هذه الطريقة الوحيدة لتحمّل مصابها!

ما إن استقرّت، حتى أبلغت والدها بما حدث، وبأنها حامل. كما أخبرته أن جايمس لا يريد أولاداً، وأنه لا يزال يحب فيونا.. وهذه نهاية القصة. وجعلته يعدها بألاّ يعلم جايمس بمكان وجودها، تحت أي ظرف من الظروف، مع أنها كانت واثقة من أنّه لن يسأل عنها.

سيتم أيّ اتصال ضروري عبر محاميها، وفقاً للرسالة التي بلغتها إيّاها فيونا. وبعد ذلك، رفضت أن يُذكر اسمه خلال زياراتها إلى المحامي ومكالماتها المنتظمة معه.

لكنها، ومنذ أمسكت بابنتها بين يديها لأول مرة، فكرت بجايمس. فكرت به مشفقة عليه، فهو لن يعرف أبداً متعة حمل طفل من دمه ولحمه بين ذراعيه! ولن يعرف أبداً الحب الصافي الكامل الخالي من الأنانية الذي يكنه الوالد لطفله.

قطبت بنعومة وهي تنظر إلى الساعة الجدارية، ثم استرخت. في لهفتها لتصل إلى بيتها، ارتدت ملابسها واستعدت باكراً جداً. سيكون والدها وإيملي هنا بعد خمس دقائق.

لقد وعدتها إيملي وهما يغادران بعد زيارة المساء: «في العاشرة صباحاً بالضبط! غرفة الطفلة هادئة ودافئة. تلك المدفئة التي وضعتها رائعة! سيكون هناك موقدة في غرفة الجلوس. ولقد ذهب ادوارد ليشتري الديك الرومي، وهكذا سنحتفل جميعاً بعيد ميلاد جميل ومريح!».

لقد كانا طيبين جداً معها. فقد أصرا على أن يقضيا آخر شهر من حملها في الكوخ، ليتأكدا من أنها لا تقوم بأعمال متعبة، وتأكل جيداً، وليكونا قريبين منها لإيصالها إلى المستشفى، حين يبدأ المخاض.

كان يمكن أن تتدبر أمورها بنفسها، طبعاً، لكن سرّها أن تشعر بالدلال والرعاية لتغيّر حياتها. والميلاد هو موعد اجتماع العائلة، والدها، إيملي، وكلوي الطفلة.. فماذا تريد أكثر من هذا؟

جايمس.

جاء اسمه غير مرغوب فيه، فأطبقت شفتيها المرتجفتين فجأة.. هذا متوقع.. وعذرت أفكارها المشاكسة بسرعة.. كلوي هي طفلته أيضاً.. ومن الطبيعي، بعد ثماني وأربعين ساعة من الولادة، أن تشعر بالضعف، وتتجه أفكارها باستمرار إلى الرجل الذي تسبب بمعجزة هذه الحياة الغالية.

لكنها سرعان ما ستعود إلى الطريق السليم، ما من مشكلة. وما إن تعود إلى كوخها الذي استأجرته في ضواحي قرية «دورست» والذي أحبته في الأشهر المنصرمة، حتى تكون بخير، بخير تماماً.

استرخى فمها الناعم قليلاً، كانت تشعر بأن الأمور ستسير بطريقة إيجابية. لكن قلبها هبط فجأة، حين دخل جايمس الغرفة، تلحق به إحدى الممرضات الشابات الجميلات.

للحظة، ظنت أنها تتخيل، وبدا أن قلبها توقف، ثم تسارعت نبضاته فجأة.

بدا قوياً وجذاباً، كالعادة، بشعره الأسود الكثيف وسترته الجلدية السوداء لكنها شعرت لدى رؤيته بما كانت تشعر به قبل أن يجعلا زواجهما فعلياً، ذاك الشعور بالخوف من هذا الرجل الحازم.

كانت عيناه الصارمتان متجهمتين، وهما مسمرتان عليها وعلى

الطفلة، فارتجفت ماتي. بدا لها وكأنه يكره الطفلة ويكرهها!

ـ لقد جاء زوجك أخيراً ليصطحبكما، سيدة كارتر، أليس هذا عظيماً؟

وفكرت ماتي: ليس عظيماً أبداً. كانت مصدومة، خائفة، ومرتبكة.

لكنها لا تستطيع قول شيء. لن تستطيع أن تطلب منه أن يبتعد عنها، أن يتركها والطفلة في شأنهما.. أن تذكره بأنه لا يريد أيّاً منهما.

كانت الممرضة تبتسم بغباء تحت تأثير ابتسامته الغاوية وهو يستدير نحوها: «من الأفضل أن نسرع، فالثلج يهطل في الخارج».

وقفت ماتي على قدميها، فيما الممرضة تبشرهما سعيدة بميلاد أبيض.. أحست بدوار، وكأنها تطوف.. وتراخت ساقاها، ولم تستطع البقاء منتصبة على قدميها إلا بسبب اللفافة الصغيرة الغالية بين يديها.

بعد إعطاء حقيبة ماتي الصغيرة لجايمس، توقفت الممرضة عن التعليق على الطقس، وابتسمت للطفلة النائمة، وهذا ما أهمل جايمس فعله.. وسألت بابتهاج: «هل قررتما الاسم الذي ستطلقانه عليها؟».

فردّت ماتي بحزم: «كلوي».

ونظرت نظرة تحدي إلى جايمس، وهي تشعر بالقوة تندفع مجدداً إلى جسمها.. الطفلة طفلته، لكن هذا لا يعطيه الحق في التدخّل في أي وجه من أوجه حياتهما، ستقول له هذا حالما يتخلصان من المستمعة إليهما. قالت لها الممرضة وهي تودعهما: «والآن، حاولي أن تحصلي على أكبر قدر من الراحة في الأسابيع القادمة سيدة كارتر! وإذا قلقت على كلوي الصغيرة، فلا تترددي بالاتصال بقابلتك. وهي ستزورك قريباً على أي حال».

رنت كلماتها في رأس ماتي، وخرجت على الفور. . حمداً لله، أصبحت هي وجايمس أخيراً، وحيدين في قاعة الاستقبال. قالت ماتي بحزم: «لا أدري ماذا جئت تفعل هنا!».

فنظر إليها نظرة خالية من كل تعبير، وردّ بفم مشدود: «ألا تعرفين؟».

ونظرت حولها تبحث عن مقعد، لكن المقاعد كلها كانت مشغولة.

ـ لا، لقد أضعت وقتك! أبي وإيملي قادمان لاصطحابنا.

فرد بحدة: «أنا هنا لآخذك إلى البيت، وهما الآن في طريقهما إلى لندن!».

لمعت عينا ماتي بدموع حارقة، وشعرت بالألم في معدتها. . لقد تخليا عنها! أوه. . كيف يمكنهما هذا؟ لماذا بحق السماء يريد أخذها إلى البيت؟ فيونا لن تتحمل زوجة عشيقها وطفلته المولودة حديثاً. .

قالت مصدومة وهي تشعر أن كلوي الصغيرة بدأت تتحرك بين ذراعيها: «لن أعود معك إلى لندن».

قريباً ستحتاج الصغيرة إلى وجبة طعام وإلى تغيير، وهي نفسها على وشك الإصابة بالهستيريا. وراودتها فكرة العودة إلى الغرفة التي أخلتها لتوها، والبقاء هناك إلى وقت غير محدد.

قال بصوت مرهق: «لا أنوي أن أجرك إلى لندن. سنذهب إلى كوخك حيث أنت مستقرة على ما يبدو، وسعيدة. . وكلما توقفت عن الجدال، كلما وصلنا إلى هناك بسرعة!».

أمسك مرفقها بيد، وقادها نحو الأبواب الآلية. . سرى إحساس غير مرغوب فيه داخلها، وقامت بما في وسعها لتجاهله. وحدثت نفسها بأنه لو كان قلقاً، فليلم نفسه.

لم تطلب منه أن يأتي، ولم ترغب في أن يأتي. لقد فضّل فيونا عليها، ولم يعد له أي دور في حياتها أو حياة طفلتها.

مع ذلك، لو كانت الأمور مختلفة. . . لا، لن تترك أفكارها تسير في هذا الطريق الخطير!

صدمها الهواء البارد بعد دفء المستشفى. وتحركت كلوي مجدداً وأصدرت صوتاً صغيراً، مما أعاد غريزة الحماية عند الأم لطفلتها. إنه لا يهتم إن تجمدّت طفلته برداً! فعدا عن النظرة الأولى السريعة، لم يزعج نفسه بأن ينظر إلى ابنته، كما لم يطلب حملها.

إنه قاسي القلب، كريه!

قالت بحدة، وقد بدأ الغضب يلون خديها: «أين سيارتك؟ يجب أن أبعد ابنتي عن هذا الصقيع».

نصحها بصوت متحجر: «اهدأي، الجاغوار قريبة جداً».

ورأت السيارة على بعد عشرة ياردات. توقف هطول الثلج، لكن السماء بدت ملبّدة بالغيوم والأرض بيضاء. . وكان ضغط أصابعه يزداد، وهو يقودها إلى باب السيارة. فتح باب السيارة وانتظرها لتدخل، قبل أن يقفله ويرمي حقيبتها في المؤخرة.

حين انضم إليها، كانت قد أخذت بطانية السفر، الموجودة في سيارته، ولفتها حول الطفلة. وفيما همّ بإدارة المفتاح، علقت ببرود: «أعتقد أن أبي أعلمك بمكاني، وبولادة طفلتي».

ومع أنها لم تتوقع من جايمس أن يزعج نفسه بالسؤال، إلا أنها جعلت والدها بعدها ألاّ يقول له أين تسكن الآن. لكنه فعل هذا، وبنية طيبة، ولم يسّرها، بل أحست أنه خانها.

رد بجفاء: «لقد حافظ والدك على وعده لكن إيملي قالت لي وبموافقة ادوارد على الأرجح! على أي حال، هي لم تعدك بشيء،

ولقد عرفت أين تسكنين تقريباً».

نظرت إلى كمال صورة وجهه الجانبية، وقالت بصوت رفيع: «عرفت أين أقطن، ومع ذلك لم تزرني! وها أنت الآن، بعد أن ولدت طفلتنا!».

بدا لها كل ذلك غير منطقي. ما الّذي دفعه إلى زيارتها الآن بعد إنجابها الطفلة.. فالطفلة هي آخر ما يريد.

ـ لم أزرك حين لم تردي على أي من رسائلي التي طلبت فيها أن نلتقي في مكان محايد لمناقشة الأمور.. ولقد أوضحت بهذا أنك لا تريدين أي اتصال بي.. وأعتقد أن ادوارد سلّمك الرسائل؟

نظر إليها بمرارة: «أنا لم أكتب إلى عنوانك مباشرة، لئلا تبدّلي مكان إقامتك. لقد عرفت من إيملي أنك سعيدة حيث أنت».

عضت ماتي لسانها، تنظر إلى الأمام مباشرة. الوقت ليس مناسباً الآن لتقول له إنها أحرقت الرسالتين من دون أن تقرأهما. كان هذا في الأيام الأولى، بعد أن استقرت بوقت قصير.. وهي تحاول أن تنساه وتنسى تصرفه الغادر، ولم تكن قادرة على تحمّل ما يذكرها به.

إذا قالت له ذلك، سيدور بينهما نقاش حاد، وهي لا تريد أن تستقبل طفلتها بهذا الجوّ المشحون.

كانا قد غادرا القرية متجهين إلى عمق الريف، حيث الدروب ضيقة، متلوية. صممت أن تسترخي، وأن تبتعد عن التوتر الّذي قد يضايق طفلتها الصغيرة، لذا حاولت تجاهل جايمس. وفكرّت أنه غريب تماماً عنها، سائق أجرة ربما. وركزت على التفكير بأشياء مفرحة هادئة.

سرعان ما ستصل هي وكلوي إلى البيت، وتصبحان وحدتين. وستقفل الأبواب بثبات ضد عوامل الطبيعة، وتترك النار تشتعل في

الموقد ليصبح المكان دافئاً مريحاً.

ولن يهم أبداً أن يكونا وحيدين.. فرعاية طفلتها ستبقيها سعيدة، ومشغولة. تستطيع أن تهتم بغرفة الأطفال البرتقالية اللون التي ألصقت أوراق جدرانها بنفسها، ودهنتها وزينتها بصور الدببة الصغيرة، والحديقة التي ستتمكن في الصيف القادم من أن تعتني بخضرتها وأزهارها وفاكهتها.

ـ وصلنا!

فاستيقظت ماتي من حلم اليقظة.. ورأت الجاغوار تتوقف خلف سيارتها الفورد القديمة، إلى جانب الكوخ.

سينتهي هذا المشهد المؤلم قريباً.

ـ من فضلك، هلاّ أعطيتني حقيبة يدي!

كانت عند قدميها، لكنها لم تستطع الوصول إليها من دون المخاطرة في الضغط على طفلتها الحبيبة.

ـ شكراً لك، لإيصالي إلى هنا.

اكتفت بهذه الكلمات أن تقول بلهجة لاذعة: «سأفتح بابي ولن أعرض عليك فنجان شاي، لأنني واثقة من أنك تريد العودة إلى فيونا في أسرع وقت ممكن».

فنظر إليها نظرة استغراب.

ـ لدي المفتاح الذي أعطاني إياه والدك. لقد بقيت معهما هنا ليلة أمس، ونمت في فراشك. لكنني سأستخدم الغرفة الأخرى هذه الليلة لأنهما ليسا هنا. لدينا أمور نهتم بها، أنت وأنا. لن أدعك قبل أن أتلقى إجابات على كل تساؤلاتي.

* * *

١١ ـ ما من خيار

لحقت ماتي بجايمس إلى الكوخ الذي حولته، بجهد كبير، إلى بيت لها ولطفلتها. كانت غرفة الجلوس صغيرة، دافئة ومريحة.. النار التي وعدتها إيملي بها، دعمتها يد جايمس بالخشب قبل ذهابه إلى المستشفى.

راقبته وهو يزيل الحاجز الواقي من شرر النار ويضعه قرب الموقد، كما تفعل هي دائماً.. ثم خلع سترته الجلدية وعلقها على الباب الذي يؤدي إلى السلم الخشبي الملتوي.

كالعادة، ملأ وجوده المكان، وشعرت بالامتعاض للطريقة التي يتصرف بها، إذ كانت تعتبره دخيلاً.

لكنها لم تستطع هذا! وأحست بالبؤس، فقد بدا وجوده هنا منسجماً، وكأن الثلاثة يشكّلون عائلة حقيقية.. لم تستطع تقبل هذا الإحساس لأنه، ببساطة، غير حقيقي.

وهي، المغفلة المسكينة تريد أن يكون حقيقياً.

قالت بصوت متكسر: «لا داعي حقاً لأن تبقى!».

وكلما أسرع في العودة إلى لندن، كلما استطاعت أن تعود إلى طبيعتها بسرعة، وتطرد هذا الضعف الخطير. فتنسى ذلك الوقت حين كانا سعيدين، أو بدا لها هذا، ذلك الوقت حين كانت تشعر أنها جزء من حياته وجزء منه.

رد بحدة: «أنت بحاجة لمن يعتني بك! اجلسي، تبدين كالأموات!».

هل هذا صحيح؟ وهل يستغرب هذا؟ لقد ظهر حين لم تتوقعه.. حين بدأت تؤمن بأنها ستتغلب قريباً على ذكراه..

سألته بحزم: «قلت إن هناك أشياء تريد أن تبحثها معي».

إنه يريد الحديث عن الطلاق، على الأرجح.. ولا تستطيع التفكير بأي سبب آخر يدعوه إلى السعي وراءها. لكن، لماذا لم يفعل هذا عبر المحامي، كما نصحها؟.

ـ يمكن لهذا الأمر أن ينتظر يوماً أو يومين، إلى أن يتحسّن حالك.. تلك الممرضة طلبت منك أن تستريحي، ألا تذكرين؟

لكن الراحة ستكون مستحيلة وهو هنا.. ألا يعرف هذا؟ إنه يملأ منزلها بالذكريات، بالتشوق المستحيل لقلب وهبته لرجل لا يستحقه.

لكن، لم يكن هناك جدوى من الجدال معه. فهو عنيد بطبعه، حين يصل الأمر إلى تنفيذ ما يريد.. إضافة إلى هذا، هناك أشياء كثيرة عليها انجازها.

راحت الطفلة تتململ في الشال، وقبضتاها الصغيرتان تضربان الهواء.. وبدأ فمها الوردي يرتجف. في أيّ لحظة الآن ستبدأ بالصراخ، ستصدر صوتاً عالياً، صوتاً قد يصمّ الآذان.

قالت ماتي متصلبة: «إنها بحاجة إلى طعام وتغيير!».

وتولّت الغرائز البدائية زمام الأمور: «أرجوك هلاّ حملتها فيما أجهز لها حاجياتها؟».

تقدمت نحوه، فتراجع وتبدّلت تعابير وجهه: «ضعيها هناك!».

وأمال رأسه قليلاً نحو الأريكة المغطاة بقماش مطرز.

ـ لن تقع من هناك! ضعي الوسائد بينها وبين الحافة!

وتراجع عبر الباب الموصل إلى المطبخ: «سأحضر لك شراباً ساخناً!».

ابتلعت ماتي غصة تشنج غاضبة.. لكن، بحق السماء، ماذا كانت تتوقع؟ إنه لا يستطيع حتى النظر إلى ابنته، فكيف تصورت أنه قد يحملها؟

بحذر، وضعت المولودة الحمراء الوجه على الأريكة وخلعت عنها معطفها، وهي تشعر بضيق في حلقها واستهجان لتصرفه نحو طفلته البريئة.

كانت الحفاظات ومناديل التنظيف في الحقيبة التي حملها جايمس.. وبعد أن هدأت، غيّرت لها حفاظها بسهولة.

وفكرت ماتي في أنها بدأت تعتاد على هذا، وتعمدت أن تبعد جايمس عن تفكيرها. استقرت بارتياح في زاوية الأريكة المريحة، وفكت أزرار ياقة ثوبها الواسع، وضمت طفلتها إلى صدرها. وعكست عيناها الحب الأمومي بينما أخذت الطفلة الصغيرة ترضع بنهم.

كانت عيناها لا تزالان مشعّتين وهي ترفعهما إلى جايمس الّذي عاد إلى الغرفة حاملاً فنجاني شاي: «إليك الشاي!».

ووضع الفنجان والصحن على طاولة منخفضة، قريبة منها.

ـ هناك المزيد في الإبريق إذا رغبت!

كان صوته كئيباً وهو يأخذ سترته، وجعلها التعبير على وجهه تشعر بالدمار الكامل.

لا بد أن منظرها وهي تطعم طفلتها، ملأه بالاشمئزاز. ولم تعتقد أنها قادرة على تحمل هذا، لكنها عرفت أنها مضطرة. فهذا الرجل معادٍ للأولاد بحيث هدد المرأة الوحيدة التي أحب، بإنهاء علاقته بها لو خالفت رغباته وحملت.

كان صوت الباب الخارجي الّذي أقفله خلفه، مريحاً. أخيراً، سيرحل. ما كان عليه أن يأتي! ومع سماعها صوت محرك الجاغوار يهدر، انهمرت دموعها على خديها.

تملكه القرف منها ومن طفلتها، بحيث أنه لم يتحمّل البقاء لوقت أطول. لقد ذهب، وليس لديها أي فكرة عن سبب مجيئه إلى هنا أصلاً.

كل ما عرفته هو أنها تتمنى لو لم يأتِ.. لقد فتح جروحاً بدأت على الأقل تشفى.. والنتيجة أكثر إيلاماً مما ظنت.

وضعت ماتي الطفلة في غرفتها بعد أن نامت، وعادت إلى التفكير.. لستة أشهر خلت، كانت تعرف أن مستقبلها ومستقبل جايمس يسلكان مسارين منفصلين.. ولسوف تستمر في ذلك!

لقد مرت بأوقات عصيبة شعرت فيها بالحاجة لأن تكون برفقة رجل. لكنها سرعان ما تكيّفت مع الوضع، واعتمدت على نفسها في الكثير من الأشياء الّتي تتطلب جهداً ذكورياً.

هكذا سوف تتدبر أمرها مجدداً، ولن تفكر بجايمس، وستستقر لتشفي مجدداً قلبها المحطّم.

هذه المرة سيكون الأمر أسهل، فلديها طفلة ستشغل كل وقتها واهتمامها. وقررت بحزم وهي ترتدي كنزة أكبر من حجمها، وبنطلوناً واسع الخصر، بسبب ازدياد وزنها، أن عليها قطع مسافات كبيرة لتستعيد جسمها ورشاقتها.

ورأت بامتنان أن جايمس غيّر ملاءات السرير.. وفاحت من الأغطية رائحة دواء تنعيم القماش الذي تستخدمه.. ولم تستطع مواجهة فكرة اضطرارها إلى فرش السرير بنفسها الآن.

مع ذلك، فكرة أنه نام في فراشها، أرسلت فيها قشعريرة اجتاحت كل جسدها. لكنها لم تسمح لنفسها بأن تتذكر تلك الأوقات الحميمة

التي تشاركا فيها الفراش.

لن تتذكر هذا!

كان غداؤها عبارة عن بعض التوست «والباتيه» من الثلاجة المليئة.. لم تكن جائعة حقاً، لكنها عرفت أن عليها أن تأكل. فلديها ابنتها لتعتني بها، ومصلحة كلوي تأتي في الدرجة الأولى! وسيكون أسوأ نوع من الخداع والخيانة إن سمحت لنفسها بأن تغرق في الرثاء على النفس.

على الأقل، لن تضطر للخروج إلى السوق لأكثر من أسبوع.. لقد خزن والدها وإيملي طعاماً يكفي لإطعام جيش صغير. وقبل انتهاء هذا الأسبوع، سوف تفتش عن وسيلة لتثبيت مقعد الطفلة في المقعد الخلفي لسيارتها.. هناك عدد كبير من الرباطات والتعاليق والصور والتعليمات التي جاءت مع الأداة الغريبة الشكل، وبدت لها غير واضحة.

لو كان جايمس هنا، لداست على كبريائها وطلبت منه أن يركبها لها.

لكنه ليس هنا!

أمضت ماتي بعد الظهر تغير حفاظ الطفلة، وتساعدها على التجشؤ، ثم ترضعها.

ومع حلول الساعة الخامسة، شعرت بالارهاق. كانت متعبة جداً لتطهو لنفسها. لذا ارتمت على الأريكة، وبدأت الشكوك الجدية تراودها.

هل هي حقاً قادرة على العناية بهذه الحياة الجديدة لوحدها؟ وماذا لو أن كلوي الصغيرة مرضت؟ هل ستميّز بين عويل الجوع وصرخة الألم؟ هل هي مناسبة لتكون أماً في الأساس؟

كان الإرهاق يثقل دماغها ويجرها إلى الأسفل.. لكانت بحال أفضل لو أن والدها وإيملي بقيا معها كما وعداها، ليسلياها ويساعداها!

لكن، يجب ألاّ تلومهما.. لا بد أنهما ظنا أنهما يفعلان ما هو صواب، حين طلبا من جايمس أن يأتي بها من المستشفى، ويبقى معها لفترة. وتصورا بكل محبة أنه يكفيه نظرة واحدة إلى طفلته لتتغلب عليه عاطفته، وبهذا يعيش الجميع سعداء.

إنهما شخصان طبيعيان طيبان. لن يتصورا أبداً أنه قد يقرف من منظر الأم والطفلة، وأنه سيعود مباشرة إلى لندن وإلى فيونا، وكأن كل شياطين الأرض تلاحقه!

كانت أشدّ تعباً من أن تبكي.. وفجأة سمعت صوت المفتاح يدور في القفل، ورأت جايمس يدخل الغرفة ويخلع معطفه.

قال معتذراً وهو يعلق معطفه الجلدي: «آسف، لأنني تأخرت.. فمع إقفال النوافذ الخشبية لا بد أنك لم تلاحظي، لكن الأرض في الخارج بيضاء كلياً! فكرت أكثر من مرة في أن أترك السيارة، وأعود سيراً على الأقدام».

ـ ظننتك في طريق عودتك إلى لندن!

استقامت، وهي تشبك يديها حول ركبتيها.

كبت جايمس رداً متهوراً.. هل تزدريه إلى هذا الحدّ؟ ودس يده في شعره الممتلىء ثلجاً.. هذا ليس الوقت المناسب للشجار! حين تصبح أقوى، سوف تبرز الحقيقة، مهما كان شكلها، وسيحصل عليها منها.. زمن الانتظار والترقب أوشك أن ينتهي!

لكنها تبدو الآن ضعيفة ولن تتحمل أي خلاف بسيط. قال بنعومة: «كان عليّ القيام ببعض الأشياء، ولزمها وقت أطول مما

توقعت، بسبب حال الطقس! هل تناولت الطعام؟».

غيّر الموضوع، وضغط على فمه حين لم ترد. . كان رأسها منحنياً، وعيناها إلى الأسفل. جعل نور الموقدة المشتعلة عظام خديها تبدو أكثر بروزاً. . وكان شعرها قد ازداد طولاً منذ آخر مرة رآها فيها، وقد عقدته إلى الخلف. . وخمّن أنه لو كان منسدلاً، لوصل إلى كتفيها. . وبدت ضعيفة بشكل مؤلم.

قال بحدة: «إذن سأحضّر شيئاً لنا معاً».

واستدار على عقبيه متجهاً إلى المطبخ، ثم عاد واستدار.

شيء ما ناقص، لأول مرة لم تكن تتشبث بطفلتها بقوة وشراسة الأم!

ـ هل الطفلة نائمة؟

هزت ماتي رأسها إيجاباً وأسنانها تعضّ على شفتها السفلى، على الأقل «الطفلة» أفضل من «هي».

ـ وهل ستسمعينها إن استيقظت؟

تجاهلت فظاظة صوته، وخفق قلبها بسعادة. . إنه يقلق على ابنته الصغيرة، حتى وإن لم ينظر إليها جيداً، ورفض حملها.

استرخت قسمات وجهها قليلاً وهي تشير إلى جهاز الاستماع قربها على الأريكة.

ـ لدي هذا، وسأسمعها حالما تستيقظ.

ـ عظيم!

واختفى في المطبخ. فيما عادت ماتي متهاوية إلى زاوية الأريكة، تشعر بالارتياح لوجوده هنا. شعرت بالراحة لأنه لم يهجرها، لكن المعركة العاطفية كانت تتعبها.

استرخت حتى ناداها إلى المطبخ، فهي تعبة، منهكة لا تقوى على

القيام بشيء، ولم يكن أمامها سوى الاستسلام لأي تيار يجرفها معه.

كان المكان دافئاً، وباقات من الأعشاب المطيبة المجففة، تتدلى من السقف الخشبي، والطاولة الصنوبرية المربعة، محضرة للعشاء. بدا كل شيء لذيذاً ومألوفاً لها، بحيث ترقرقت الدموع في عينيها.

كان يجب أن يبدو جايمس في غير مكانه، لكن هذا لم يحصل! فحين أعطاها طبق الفيليه المشوي، بدا وكأنه أكثر راحة منها.

وكان قد شوى الفطر والطماطم أيضاً، وحضر سلطة خضراء. وقال آمراً: «كلي، ثم اذهبي للنوم! تحتاجين إلى النوم باكراً. سأهتم أنا بالتنظيف!».

بللت دموع غبية عينيها، وارتجف فمها وهي تقطع اللحم الطري. . وبدت ممتنة لأنه أجّل النقاش حول طلاقهما. فهي كانت عاجزة عن مواجهة الموضوع، وربما ستشعر لاحقاً بأنها أقوى.

أكلت وجبتها قدر استطاعتها، وشربت قليلاً من العصير. . وتساءلت عما إذا كان يشعر كم أن جفنيها يطبقان واستطاعت أن تسمع صوت آلة الغسيل، تدور في غرفة الغسيل. ولاحظت أن لفافة غسيل الطفلة التي تركتها على الأرض، لم تعد موجودة.

إنه القشة التي تريد أن تتمسك بهاالآن! قد تجد نفسها جاثية على ركبتيها، تشكره لأنه هنا من أجلها. لكنها لن تدع هذا يحدث، يجب أن تتماسك!

وضعت ماتي الشوكة والسكين من يدها: «شكراً لك!».

لن تبدي دهشتها لقدرته على الطهي جيداً، وتذكّره أنهما تعلما الطهو معاً في عيد الميلاد الماضي. فمن الأفضل الابتعاد عن أي موضوع شخصي! ودفعت نفسها لتقف، وكل عضلة في جسمها تتألم

ـ سألتزم بنصيحتك الآن، وأذهب لأنام.

* * *

استطاعت أن تصعد السلم بصعوبة. وحين تكورّت أخيراً تحت الغطاء، نامت على الفور، لتستيقظ بعد وقت قصير، على عويل الطفلة الجائعة.

انتصبت فجأة، وخرجت من السرير متعثرة إلى غرفة الأطفال الصغيرة عند رأس السلم. وكادت تقع، وهي تدفع شعرها بعيداً عن عينيها بيد، وتتحسس مقبض الباب في الأخرى.

قالت بصوت متحشرج: «أنا قادمة يا حبيبتي! اصبري، سأجففك وأريحك في وقت قصير!».

وعلى ضوء الليل المعتم، جمعت كل ما تحتاج إليه، الحفاظات النظيفة، قماش التنظيف، الكريم، وثياب نظيفة.

سوف تأرق كثيراً في الليالي المقبلة.. فكرت بهذا بسخط، وهي تجلس والطفلة الجائعة بين ذراعيها.. فتحت ياقة ثوب نومها القطني، ووضعت كلوي لترضع في الوقت الذي دخل فيه جايمس.

كان يرتدي سروالاً قصيراً أسود اللون، ويحمل كوباً من الحليب الساخن الذي يتصاعد منه البخار، وانتفض قلبها. كان جسمه رائعاً كما تتذكره، وأحست بالألم للذكرى. إنها تعرف كل جزء منه وبشكل حميم.. ألا يمكنه أن يتصور كم أن هذا صعب عليها؟

انتظرت لترى نظرة الاشمئزاز في عينيه، وتساءلت عمّا ستكون ردة فعلها على تلك النظرة. لكنه لم يرمقها بتلك النظرة، بل وضع الصينية قرب قدميها لتصبح سهلة المنال.

ـ سمعتها تبكي، وسمعتك تتحركين!

كانت لهجته جافة جداً.. أرادت أن تضحك: «آسفة لإيقاظك!».

كان شعره مشعثاً، و.. خصلة ناعمة تتدلّى على جبينه. أحبته كثيراً، لم تستطع منع نفسها من ذلك.. ما إن يذهب، وقد يحدث هذا غداً، حتى تبدأ مجدداً المسيرة الطويلة المؤلمة لتنساه.. لم ترتح للفكرة وشككت بالنتيجة!

رد من دون اهتمام: «لا تأسفي، أنا هنا لهذا! جئت لأساعدك. أعترف أنني لا أعرف الكثير عن هذه الأمور، لكنني أتصور أن أماً مرضعة تحتاج إلى أن تشرب الكثير من الحليب».

ولم يكن في صوته أي نبرة اشمئزاز، ربما أخطأت في تقدير ذلك. وراقبت تقلص عضلات ظهره العاري حين انحنى ليرتب أغراض الطفلة.

من الأفضل ألاّ تنظر إليه، وأن تنظر إليه بأقل قدر ممكن! ومن الأفضل أيضاً أن تطرح السؤال الذي يشغلها وتتأكد، لأنها واثقة من أن فيونا لن ترضى بأن تترك وحيدة في فترة الميلاد.

ـ أعتقد أنك ستعود في الصباح إلى لندن؟

ووقفت على قدميها بعد أن نامت ابنتها الطفلة وهي ترضع.. فقد استيقظت كلياً، وبشكل لاذع. كل عصب في جسمها راح يرتجف ويخزها، وهي تنتظر الرد على سؤالها.

استقام، ووضع الأغراض على سطح خزانة صغيرة جميلة من خشب الصنوبر.

ـ افتراضك خاطىء، سأبقى هنا إلى أن أجد أنك قادرة على تدبّر أمورك!

وجعلها الارتياح تشعر بالدوار، إنه يهتم! هذه المرة، لن يضع فيونا قبل حاجات زوجته وطفلته! تشجعت وسألته بصوت منخفض: «أتريد أن تحملها؟ لن توقظها. أعتقد أنها ستنام إلى أن تجوع مرة

أخرى».

- لا!

لم يكن رده حاسماً.. لكن تبريره جعل قلبها يتلوى بحدة في صدرها.

- نحن نعيش منفصلين، ولو لم تبقني إيملي على اطلاع على أخبارك، لما عرفت بموعد ولادة الطفلة، ولا بجنسها.

- كنت سأخبرك عبر المحامي!

وصمتت وقد راعها أن يظن غير هذا.. كانت ستبلغه بولادة الطفلة وتنتظر رده، آملة أن يطالب بحقه في رؤية الطفلة.

لكنه لم يصغ إليها، وتابع بحدة وكأنها لم تقل شيئاً.

- في هذه الحالة، لن أتحمل التعلق بطفلة رغبت أمها بالاختفاء عن ناظريّ!

فقالت بلهفة، مقطوعة الأنفاس: «ما كنت لأمنعك من رؤية كلوي».

ولماذا تمنعه، جلّ ما تأمله هو أن يتعرف جايمس على ابنته ويتقبلها!

- من الأفضل لها أن تعرف أباها، وتقضي معه وقتاً، حين تكبر! أعتقد أنك تفهمني!

- لا.. فمنذ ستة أشهر لم تسألي عن رغباتي، كما لم توافقي عليها.. فلماذا بحق السماء أوافق على رغباتك الآن؟

استدار نحو الباب متوتراً، وأضاف:

- فكري بالأمر يا ماتي! وبالله عليك، نامي كلّما احتجت إلى ذلك!

* * *

١٢ - شجرة الميلاد

حمداً لله أن ابنتها قانعة الآن! وضعت ماتي كلوي في مهدها بعد وجبة الصباح المبكرة.. لقد أمضت الليل تذرع الغرفة جيئة وذهاباً وبين يديها لفافة صارخة، حمراء الوجه، غاضبة.

وها هي تشعر بالإرهاق، بعد أن قضت نصف ليلها تفكر بما قاله، والنصف الآخر في ما لم يقله. وتملكها الشوق طيلة الليل، لتندس إلى جانبه في السرير العريض وتتوسل إليه أن يضمها بين ذراعيه، ويشدها إليه.

كان الفجر قد بدأ يبزغ، حين سمعته يتحرك في الطابق السفلي، وهي تسير إلى الحمام لتستحم. وتخيلته يشعل النار، ويخرج في الثلج لإحضار المزيد من الحطب.. ولعله بدأ بتحضير الفطور.

سوف يقوم جايمس بما يعتبره واجبه لأنه من هذا النوع من الرجال.. فهي ما زالت زوجته، ولقد ولدت له لتوها طفلته. لقد طلب منه أبواها أن يعتني بها قليلاً ثم رحلا، ليجد نفسه مجبراً على البقاء بضعة أيام إلى جانبها.

لكنه سيبقى متوتراً، وسيسأم إلى درجة أنّه سيود العودة سريعاً إلى المدينة، وإلى فيونا.

لم تكن ترغب بارتداء فستان أمومة آخر، لذا اختارت أحد سراويل الجينز التي كانت ترتديها، قبل أن تكتسب وزناً زائداً.. إذا لم يناسبها،

ستضطر إلى العودة إلى ملابس الرياضة التي لا شكل لها.

ولحسن الحظ، ناسبها الجينز.. وأحست أنها أفضل بكثير، حين سرحت شعرها النظيف وتركته منسدلاً على كتفيها.. ثم تبرّجت كما لم تفعل منذ أشهر فنجحت في إخفاء آثار الأرق الّتي عانت منها طول الليل.

لقد اتهمها بأنها لم تسأله عن رغباته، وهو على حق، لأنها لم تسأل. ولمَ تسأل وهي تعرف رغباته؟

لقد قال لها بنفسه إنه لا يريد أولاداً. وإذا لم يكن هذا كافياً، فقد أكدت فيونا هذا من دون أن يطلب منها أحد! لذا فإن غضبه، لأنها لم تسأله بخنوع عن رغباته، يجعل منه منافقاً كبيراً!

مع ذلك، ومن ناحية أخرى، أظهر مشاعر حقيقية حين قال إنه لا يستطيع تحمل أن يرتبط بطفلته لأن أمها قد تختفي عن وجه الأرض بها مرة أخرى. وبطريقة ما ستضطر لأن تؤكد له بأن هذا لن يحدث، وأنه سيسرّها أن يكرّس بعض الوقت لطفلته.

نزلت السلم الملتوي من خشب السنديان، ودفعت الباب في الأسفل، ثم جمدت متسعة العينين.

كانت النار تستعر في الموقد كما توقعت، لكنها أخطأت في كل ما عدا ذلك.. لم يبدُ لها متوتراً، بل كان يضحك لردة فعلها على ما تراه.

رأت شجرة ميلاد زاهية منتصبة قرب إحدى النوافذ، مزينة بكرات ذهبية وفضية، تعكس وهج النار، وشرائط حريرية حمراء تلف جذوع الشجرة المغطاة بثلج اصطناعي يشبه ذاك المتساقط في الخارج.

كانت حديقتها، أشبه بأرض العجائب السحرية تحت أشعة الشمس، والسماء زرقاء شاحبة اللون..

أحرقت الدموع عينيها، وقالت بصوت أجش: «إنها جميلة

جداً!».

وأرادت أن تقول له إنه يبدو جميلاً كذلك. كان يرتدي سروال جينز أسود ضيق وكنزة سميكة. بدا شعره الأسود مشعثاً، وارتسمت ابتسامة على شفتيه خففت من حدة ملامحه، فبدا مثالاً للكمال الرجولي.

قالت، تسيطر على الضعف في صوتها: «من أين جئت بالشجرة؟».

- من دورشستر! كان لدي أعمال هناك بعد ظهر الأمس، ألا تذكرين؟ وكانت الشجرة واحدة منها، والزينة أخرى. أردت أن أفاجئك!

وتلعثم صوته: «هاي، لا تبدئي بالبكاء أمامي! إنه يوم الميلاد! إنه يوم مميز سنتظاهر فيه أننا سعداء.. إتفقنا؟ مع أنني قرأت أن الأم الجديدة تميل للبكاء كثيراً!».

هل اهتم حقاً بموضوع كهذا؟ هل قرأ فعلاً كتباً عن الحمل والولادة وما بعد الولادة؟ ولم تستطع أن تتصور ذلك. وصدمها قوله، «سنتظاهر أننا سعداء».

لكنه كان مصمماً على لعب دوره! وصدمها حين سأل: «هل كلوي نائمة؟».

أجابته وقد بحّ الذهول صوتها: «من دون حراك، ولدي جهاز الإنذار!».

كانت ابتسامتها المفاجئة مذهلة. لقد دعى ابنته باسمها، ولأول مرة. بدأت الأمور بالتحسن.. سوف تعلمه بطريقة ما، أنها لن تحرمه أبداً من رؤية ابنته، لكن بحذر! فهي لا تود إخافته بتحميله مسؤولياته الأبوية منذ البداية. وقالت: «الشجرة كانت مفاجأة جميلة! لا بد أنك

مستيقظ منذ ساعات، لذا عليك أن ترتاح بينما أحضر الفطور».

ـ إنها فكرة جيّدة!

لحق بها إلى المطبخ، فشعرت بالتوتر. لو بقي في غرفة الجلوس، لأفسح لها المجال للتنفس.

بإمكانها أن تكون ما هي عليه، أم وحيدة تشق طريقها لتفي باحتياجات طفلتها. من ناحية أخرى، أرادت أن تستغل وجوده إلى جانبها، قدر المستطاع. وهذا أمر لن يدوم طويلاً، ليوم أو يومين فقط.

لم تسأله ماذا يريد، فهي تعرف. دست شرائح من اللحم والطماطم في الفرن، وفتحت علبة عصير البرتقال ووضعت التوست في آلة التحميص؛ ثم وضعت كوب قهوة طازجة على الطاولة أمامه، متجنبة عينيه.. بدأ وجوده يحرجها حين فكرت بأن سببه قد يكون تسوية أمور الطلاق.

استدارت مجدداً نحو الفرن.. ربما عليها أن تكون أكثر واقعية، وأن تقول له ما أرادت أن تقوله قبل أن تبعدها فيونا. أن تقول إنها تأمل أن يبقيا صديقين، صديقين بعيدين.

لكن حين قال: «بت تجيدين الطبخ هذه الأيام!».

شعرت بالدفء في داخلها.

يمكن للحقيقة أن تنتظر، فمن الجيد الإحساس وكأنهما عادا إلى الأيام الخوالي.. وكأنهما صديقان، ولو أن هذا فقط بسبب جو هذا اليوم المميز! فحتى الجيوش المعادية تدعو إلى هدنة يوم الميلاد.

قالت ساخرة: «لا يبدو أنك لاحظت هذا بعد! لقد تعلمت كذلك كيفية اصلاح الكهرباء، وتسليك المجاري...».

وأعطته طبقه وجلست في الكرسي المقابل له: «وأعرف أنك لن تصدق هذا، لكنني تعلمت أيضاً كيفية استخدام آلة الغسيل من دون

العودة الدائمة إلى كتيّب التعليمات!».

هل تحاول القول له إنها قادرة على تدبّر أمورها بنفسها، وأنها تغيرت؟ هل تحاول القول إنها لم تعد حمقاء بالنسبة للأمور العملية للحياة اليومية؟ على أي حال، بدا وكأنه فهم استقلاليتها الجديدة.

فسألها: «هل عدت إلى العمل ثانية؟».

ـ أجل، لكنني لا أعمل كثيراً كما كنت أفعل، ما يكفي فقط لأبقى من دون ديون ولا ألمس رأسمالي! ولم أستطع أن أعمل كثيراً قبل ولادة كلوي.

لم تعرف لما كانت تقول كل هذا، فلسانها انطلق ولم تستطع أن توقفه: «.. لأنه كان عليّ القيام بالكثير من التصليحات في الكوخ، والحديقة..».

ـ أجل، أعرف. قالت لي إيملي هذا. ولقد ارتحت لسماع إنك استخدمت ذلك الفلاح المتقاعد ليقوم بالأعمال الصعبة من حفر، ودهن السقوف، وغيرها.

كان قد أنهى طعامه، وراح ينظر إليها بعينين غير مقروءتين، وانقلبت معدة ماتي.. لقد بقي على علم بكل تحركاتها، خلال الأشهر الستة الماضية.. لقد باحت إيملي بكل التفاصيل الصغيرة. وهذا يعني أنه ما زال يهتم قليلاً بها.. كان يحس بنوع من المسؤولية، في حين ظنتّه تخلّى عنها نهائياً.

وجعلها هذا تشعر بالدفء.. وشعرت بدفء واسترخاء أكثر حين قال: «لقد أسست بيتاً تحسدين عليه هنا، كيف وجدته؟».

وتحول الدفء إلى ضحكة منخفضة مقهقهة: «صدق أو لا تصدق! قبل أن أغادر لندن اشتريت سيارة الفورد القديمة وخريطة، وكنت أنوي الاتجاه شمالاً».

لم تقل له إنها كانت تنوي الابتعاد قدر الإمكان عنه من دون مغادرة انكلترا. فهي لن تخاطر في قول هذا.

- وصلت دورشستر قبل أن أدرك أنني أسير في الاتجاه الخاطىء، ولم أتحمل فكرة العودة، فبقيت. ووجدت الكوخ عبر وكالة تأجير.

التوى فمه، وتراقصت عيناه ضحكاً: «هذا يفسر الأمور! قصدت الشمال وانتهى بك الأمر في أقصى الجنوب.. لطالما كان إحساسك بالاتجاهات ضعيفاً، ولطالما أعطيتك توجيهات بالاستدارة إلى اليسار، فتتجهين إلى اليمين!».

وبدا عليه الجد: «لقد قلقت عليك، قلقت حقاً! كنت أتخيلك وراء مقود سيارة، فأخاف عليك».

التمعت عينا ماتي، لم تكن بحاجة إلى أن تتظاهر بالسعادة الآن.. لقد قال إنه قلق عليها، وهذا يعني أنها ما زالت تعني له شيئاً.. لم تمت المشاعر التي كان يكنها لها يوماً. مشاعر الصداقة والرغبة فيها، لم تمت نهائياً بعد.

بدأ يكبر الأمل الذي توقف عن النمو منذ زمن طويل.. ربما لم تنجح الأمور بينه وبين فيونا، وهذا ما يشرح لماذا لا يهتم بقضاء عيد الميلاد بعيداً عن لندن. ربما أراد أن يستعيد زوجته، وإلا لماذا تكبّد عناء جلب شجرة إذا لم يكن للتأثير عليها؟

لن تكون حب حياته، وتعرف هذا. لكن ربما، ولأجل كلوي، يمكن أن يحاولا إنجاح زواجهما.

أرادها أن تعود إليه، هل يمكن أن تسامح خيانته؟

الرد على هذا هو «نعم» متجهمة. لقد أحبته طويلاً بحيث أنها قد تفعل أي شيء، وتسامح على أي شيء، لتعود جزءاً من حياته.

بقيت تنظر إليه وهو يبتعد عن طاولة الفطور، ويأخذ شيئاً من خزانة

أدوات المطبخ.. الأمل مخيف. من السهل أن يتبخّر، وستضطر لأن تسأل إذا ما كان يريد عودتها إلى حياته، وأن تعرف ما الذي حدث بينه وبين فيونا.. وهي لن تتحمل ألاّ تعرف، لكنه سبقها.. ووضع مغلفاً بنياً كبيراً على الطاولة أمامها، ووقف خلفها.

- هذا لك يا ماتي.. ميلاد مجيد!

كان في صوته نبرة غير واضحة، أخافتها.. وارتجفت أصابعها قليلاً وهي ترفع غطاء المغلف وتسحب الوثيقة.

كانت الوثيقة وثيقة شراء الكوخ الّذي سجل.. باسمها. وأحست بالسعادة، لأنه كان ورائها لئلا يرى الدمار الذي بدا في عينيها.

قالت بصوت قاس ومشدود: «هذا كرم منك!».

بالطبع لا يريد عودتها.. إنه يريدها أن تبقى هنا، بعيداً عنه.. لقد اشترى لها هذا الكوخ ليريح ضميره من ناحيتها.

كم كانت غبية حين أملت عكس ذلك، بل أكثر من غبية.. إنها تافهة الشخصية، قد تفعل أي شيء للبقاء مع هذا الرجل الذي لا يريدها.

حقيرة!

سمعت صوت تنفسه العميق: «حين سمعت أنك وقعت في حب هذا المكان، وأنك سعيدة في جعله بيتك، اتصلت بالمالك وعرضت عليه عرضاً لا يمكن أن يرفضه! بما أنني أعرفك جيداً، عرفت أنك قد ترغبين بعقد ثابت.. لم أرغب في أن تصبحي أنتِ والطفلة في الخارج بسبب نزوة من المالك.

- أشكرك على اهتمامك.

أعادت الوثائق إلى المغلف، وابتعدت عنه. إنها الآن وحيدة، ويجب أن تكون قوية.

لكنها لم تكن تشعر بالقوة، بل بالغثيان! فوجوده حوّلها إلى طفلة باكية تطلب المستحيل، تطلب دائماً ما لن تحصل عليه أبداً.

- ماتي!

ناداها بصوت أبح، فأحست بشيء عميق يعتصر في داخلها، فاستدارت من دون إرادة منها. طالما أنه هنا، لن تعود إلى ما كانت عليه، تلك المرأة المتعقلة التي أسست لنفسها حياة جديدة مكتملة.. عليها أن تجعله يرحل، بطريقة ما!

- هل تريدين الطلاق حقاً؟

مزقتها نظرة عينيه ولهجته الناعمة إرباً.

بالطبع لا تريد الطلاق! في عالم مثالي، الطلاق هو آخر شيء تريده! لكن هذا العالم ليس عالماً مثالياً، ففيونا فيه.. ولن تتطرق لهذا الموضوع ثانية.. ما عليها سوى النظر إلى هذا المغلف البني على الطاولة، لتحدد موقفها!

- أجل.

فتصلب وجهه: «فهمت».

أخذت ماتي نفساً عميقاً.. كان كل شيء في داخلها يرتجف.

- أعتقد أنه من الأفضل أن تغادر في أسرع وقت ممكن، ما إن تسمح حالة الطرقات.

- أخبريني شيئاً واحداً.. لماذا؟ مرّة تبدين سعيدة تماماً، ومرّة أخرى تقولين لي إنك حامل وتريدين الطلاق. وكل ما أعرفه بعد ذلك هو أنك سافرت إلى مكان لا يعرفه سوى الله.

قالت بحدة: «ظننت أن هذا كان واضحاً! قلت إنك لا تريد أولاداً، وأعرف السبب، لأنك قلته لي.. وكنت أعرف ماذا سيحدث لو أنني حملت، لأن فيونا أخبرتني أنك ستخرجني من حياتك! لذا خرجت منها

من دون أن أضطرك إلى ذلك! كنت أعرف أنك تريدها هي، وليس أنا! فأنت لم تضيع الوقت لتعيدها إلى منزلك».

وساد صمت مطبق بينهما، ثم قال وقد احمر وجهه من الغيظ: «يا إلهي، رأيك بي منحط تماماً، أليس كذلك؟ أتظنين أنني قادر على هذا؟».

كانت يداه مشدودتين، وكأنه يقاوم رغبته في لكم الجدار.. لم تره من قبل بمثل هذا الغضب..

- كما ظننت بالأمس أنني تركتك هنا وحيدة؟ أم أن كل هذا الهراء عذر مناسب؟

واشتد ضغط فمه، واخترقت برودة عينيه روحها.

- كنت على حق طوال الوقت، أليس كذلك؟ هناك نعوت لنساء مثلك، يظهرن ويختفين حين يحصلن على ما يردن.. لكنك محقة في شيء واحد، حان وقت رحيلي.. وأتمنى أن تتمكني من العيش وحدك!

- جايمس!

لكنه رحل، وسمعت الباب الأمامي يقفل بشدة. أرادت أن تركض خلفه، أن تطلب منه أن يشرح لها ما يعنيه. لكن ساقيها لم تساعداها، وانهارتا تحتها.. فوقعت أرضاً ودفنت رأسها بيديها.

هل فهمت كل شيء بطريقة خاطئة؟ هل ما رأته وسمعته واستنتجه، ليس إلاّ وهمّ؟

هل فقدت فرصتها الوحيدة للسعادة؟

* * *

١٣ ـ نعمة السماء

حين سمعت ماتي الباب الأمامي ينفتح بعد دقائق، وقفت على قدميها متثاقلة، وقلبها يخفق بألم. إنه جايمس، لا يمكن أن يكون أحداً غيره.

توقعت أن يصعد إلى الطابق الأعلى ليأخذ أغراضه.. لقد تملكه غضب شديد بحيث نسي الأشياء التي تركها خلفه. سيوفر عليها هذا مشقة إرسالها له.

لكن باب المطبخ انفتح، ولم تستطع ماتي أن تنظر إليه، لم يكن لديها القوة لذلك. لم تشعر من قبل بمثل هذا البؤس طوال حياتها.

لم تستطع تحمل ثقل الصمت الّذي ساد في المكان، وهي تنظر إلى بقايا ما كان فطوراً مبهجاً.. وضحكت تسخر من المشاعر التي تملكتها في ذاك الحين.

تمتمت: «هل نسيت شيئاً؟».

فرد بثقل: «على واحد منا أن يتعقّل! لم تتحلي يوماً برجاحة العقل، حاولي ذلك ولو للمرّة. أما أنا فأعترف لك أنها المرة الأولى التي تغلبني فيها مشاعري!».

مشاعره؟ إن كان يتكلم عن غضبه فهي مشاعر يمكنها الاستغناء عنها.. لم تعد تتحمل المزيد، وبدأت تنظف المائدة.

ـ اتركي هذا!

وخطا خطوات سريعة، ليبعدها عن كومة الفناجين والصحون.

ـ اجلسي بينما أحضّر القهوة، فكلانا يحتاج إلى فنجان منها!

نظف الطاولة، وترك عليها جهاز الإنذار الخاص بالطفلة، والمغلف البني الذي راح يذكرها بقسوة، بأن لا نية له في أن يعيدها وطفلتها إلى حياته.. وبدت شديدة التوتر.

سمعته ماتي يضع الصحون في المغسلة، ويغسلها بالماء الساخن.. وكان إبريق الماء على وشك الغليان.. ولم تعرف كيف يمكن له أن يركز على أشياء عملية، في حين أنّ حياتهما تنهار.

لكن كوب القهوة الساخنة الذي وضعه أمامها أشعرها بالتحسّن.. رفعت خصل الشعر عن وجهها وهو يجلس على المقعد قبالتها. كان فمه مستقيماً، فكه مصمماً.. لكن اللمعان الفضي لعينيه عكس ضراوة المعركة في داخله.

كانت تعرف أنه سيفوز بهذه المعركة حين قال: «المنطق وليس المشاعر، هذا ما أعمل عليه. وتعرفين هذا يا ماتي! حين رميت مسألة الحمل والطلاق في وجهي في ظرف ثانيتين، صدمت. لكن المنطق قال لي بأن أتركك تنامين، لتهدأي.. وكان يمكن لنا أن نتكلم بتعقل في الصباح، لكنك رحلت».

ارتجفت، لا تريد استرجاع تلك الذكرى، فهي من الماضي! لقد أمضت ستة أشهر وهي تحاول محو الماضي.

أمسك كوب القهوة، وقال لها: «حسناً، ليس لديك ما تقولينه؟ اسمعي، سوف اكتشف ما يجري في رأسك.. إن استمرت ابنتنا بالنوم لعشر دقائق أخرى».

لم يصدر عن جهاز مراقبة الطفلة سوى بضعة أنفاس مسموعة.. وتمنّت ماتي سماع صرخة جوع تعطيها عذراً لتخرج من المأزق الذي

ورّطها فيه.. ولسوء الحظ، بدا أنه اعتبر صمتها قبولاً بأن تسلك الطريق الذي لا تريد السفر فيه.

ـ لقد انتظرت هذا ستة أشهر طويلة وصعبة! كنت سأجنّ لو انتظرت أكثر. لقد عرفت أين كنت، منذ استقريت هنا.. لكنني لم أتِ مطالباً بالردود، للسبب ذاته الذي جعلني أعطي والدك الرسائل ليمررها لك.. كنت خائفاً أن تهربي مجدداً، لذا انتظرت إلى أن اشتريت هذا المكان باسمك.. انتظرت إلى أن ولدت طفلتنا.

وحدثتها نظرة التصميم التي ارتسمت على وجهه، أنه لن ينتظر أكثر من هذا.

وتمتمت مهزومة: «لا أستطيع أن أقول لك أي شيء لا تعرفه».

ـ حاولي! إذن دعينا نطرح المسألة من زاوية مختلفة.. في الخارج، كنت مصمماً على كسر أرقام السرعة القياسية وأنا عائد إلى لندن.. بوجود الثلج أو بدونه، أتعرفين ما أوقفني؟

هزت ماتي رأسها بصمت.. كيف لها أن تعرف؟ فكرت أنه أراد أن يوبخها أكثر، وهي ببساطة لن تتحمل هذا.

قال بصراحة: «كان أمامي أشهر طوال لأفكر بالوقائع، وهذا ما أنا جيد فيه! خرجت بتفسيرين ممكنين. أولهما أنك آمنة مالياً، بفضل المال الذي وضعه ادوارد في حسابك منذ سنوات. لذا، اخترت زواج المصلحة، لتحملي مني طفلاً.. ورحلت، بعد أن حصلت على ما تريدين.. الطفلة التي تركتك تعتقدين أنك لن تحصلي عليها».

نظر إليها بعينين فولاذيتين: «أو، ثانيهما أن لفيونا دخل في ما حصل. فقد تكرر ذكر اسمها.. وهنا قال لي المنطق إن الغضب لن يحل شيئاً. لقد عرفتك منذ فترة طويلة، الوقت الكافي لأتأكد من أنك لا تملكين ذرة شر أو أنانية، وأنك لا تتخذين قرارات عملية عنيدة إلا إذا

كنت مرغمة. وتصرفك كان دافعه المشاعر.. لذا فكرت أن ما جرى، له دخل كبير باحترامك لنفسك وبفيونا».

أصابت لهجته الواقعية وتراً حساساً في نفس ماتي! بل أوتار عدة! إنه يعتقد نفسه ذكياً جداً، ومتفوقاً.. الوحش المتسلط!

أصطبغت وجنتاها بالحمرة من جراء غضبه، فقالت: «أنت على حق تماماً، هذا ما حصل! ولا أعرف كيف تجرؤ على التفكير بغير هذا! لم تتوقف يوماً عن حبها، ولا تحاول إقناعي بالعكس! كنت لتتركني لو أنها قالت إنها فكرت بالأمور، ولا تمانع ألاّ يكون لها أولاد، لأنكما ما زلتما مجنونين بحب بعضكما، خاصة بعد حملي.. وكنت ستنفذ وعدك، وترميني من البيت! ها أنتما الاثنان، تسخران مني معاً، مما جعلني أشعر بالغثيان لمجرد النظر إليك!».

كانت أفكارها مشوشة، والدموع تنهمر على وجهها.. لم تكن تبكي، بالطبع لم تكن تبكي! إنه الغضب، شعرت بشيء من الارتياح، بعد أن أخرجت كل ما في قلبها.

ـ وفي اليوم التالي كانت هناك، ترتدي لباساً يثير الاشمئزاز.. طلبت مني أن أرحل، وقالت إنني غير مرغوب بي في منزلك! أنت من طلب منها أن تقول هذا، وأن تقول إن كل شيء سيتم عبر المحامين!

ـ ماتي، اصمتي!

وأخذ كوب القهوة منها وهي تكاد تحطمه.

ـ كلامك غير واضح أبداً! متى دار هذا الحديث بينكما؟

لان صوته، لكن هذا لم يؤثر فيها. أكملت غاضبة: «وأين تعتقد؟ في ذاك الحفل الخيري الذي لم أكن أرغب في حضوره، لأنني عرفت أنني حامل. وكنت أريد أن أخبرك، لكنها تقدمت مني تتلوى وتقول..».

وضع إصبعه على شفتيها ليصمتها وجعلت لمسة أصبعه، الغضب المجنون يسكن في داخلها. لن تستطيع إخراجه من حياتها، أبداً!

ـ أعتقد أنني بدأت أفهم. إذن، بعد هذا مباشرة رأيتنا معاً؟ وبالتأكيد كنت أضحك.. وفي وجهها.. صحيح؟ يبدو أنها كانت مصممة على أن تعبث، واقترحت اقتراحاً لا أخلاقياً.. ولكنني قلت لها بكل فخر، إنها تضيّع وقتها، فلدي زوجة ترضي كل احتياجاتي.

وارتفع حاجباه: «وبسبب ما قالته، سألتني ما إذا قلت لها إنني لا أريد عائلة.. صحيح؟ وبسبب عدم ثقتك بنفسك غير المبررة، خفت، وصدّقت كل ما قالته. كانت تحاول تحطيم زواجنا.. بالتأكيد تستطيعين فهم هذا؟ ونجحت. لقد تركتني، فعشت أسوأ ستة أشهر في حياتي كلها».

نظرت إليه مصدومة: «وهل تعني هذا؟ هل توقفت فعلاً عن حبها؟».

كان كل عصب في جسمها مشدوداً.. وأرادته بيأس أن يرد بالإيجاب.. لكنها لم تكن تعرف ما إذا كانت قادرة على أن تصدقه لو فعل.

ردّ بوقار: «أنا لم أحبها يوماً يا ماتي. حاولي أن تفهمي! كنت قد رأيت أن الوقت حان لأستقر، وأتخذ زوجة. امرأة تناسب أسلوب حياتي، مساعدة اجتماعية. لم تعجبني فكرة أن أكون وحيداً في سنواتي القادمة.. وبدت فيونا مناسبة، أو هكذا ظننت. وطلبت يدها بعقلي، وليس بقلبي. قلت لها إنني لست مهتماً بإنجاب عائلة، لكنها قالت إنها لا تملك ذرة أمومة في جسمها».

وتابع: «لكنها أثارت توتري حين سمعتها تقول لشخص اسمه هوراي هنري في إحدى الحفلات، إنها تحتمل الزواج من شخص مثلي

لأنني أملك الكثير من المال.. وبالرغم مما قالته في مقابلتها مع الصحافة، أنا من فسخ الخطوبة، وليس العكس.. فهل تصدقيني؟».

أرادت أن تصدقه، أرادت هذا حقاً! لكن كان عليها أن تسأل: «إذن، ماذا كانت تفعل في منزلنا؟ توصل لك صحيفة الأحد؟».

ونظرت إليه بفم مكور غاضب، وعيناها مليئتان بؤساً لم تستطع إخفاءه.

ـ أعرف أنني تماديت بردة فعلي في الخروج من المنزل. وأعتقد أن هرموناتي كانت ناشطة! لكنني عدت في الصباح التالي لنتحدث، وفتحت لي الباب. وأبلغتني الرسالة الرهيبة منك.

ثبتت عيناه على وجهها، ومد يده ليمسك يديها، فانقطعت أنفاسها، وشعرت بغصة قوية في حلقها.

ـ لم أعطها أي رسالة لك، وهذه حقيقة يشهد عليها الله.. لم يكن لدي فكرة أنك اقتربت من المنزل. لا بد أن هذا حصل لحظة كنت مشغولاً خلف المنزل. فقد جاءت السيدة بريغز إليّ مذعورة بعد أن طافت المياه في المكان بسبب الغسّالة. وكانت فيونا هناك لأنني طلبت منها أن تأتي.. لا، لا تجفلي يا ماتي!

واشتدت أصابعه حول أصابعها: «استدعيتها لأنك ذكرتها في الليلة السابقة، قبل أن تقولي إنك تريدين الطلاق. واعتقدت أن تلك السيدة الكريهة على علاقة بما حصل، وأردت أن أعرف السبب. لقد رأيتها تتحدث إليك ثم تغير كل شيء.. استحال حلمنا الرائع إلى كابوس».

سألت بنعومة: «وهل كان كابوساً بالنسبة لك أيضاً؟».

وتساءلت عما إذا كانت قادرة على أن تصدق ما سمعته. لا، لا تجرؤ على التصديق، ليس بعد.

ولون اكتئاب مفاجىء عينيه: «من الأفضل أن تصدقي! لم أتمكن من الحصول على أيّ معلومات من فيونا، وطردتها، ثم اتصلت بوالدك وتركت رسالة.. ولم أحصل على رد.. ولم يكن لدي أدنى فكرة عن مكانك.. كدت أجن إلى أن التقيت أخيراً بادوارد، وقال لي إنك تتصلين بهما، وإنك آمنة وبصحة جيدة».

وأسرت عيناه عينيها: «أريدك أن تعودي إلي».

مرت لحظة، لحظة صغيرة شعرت فيها بالفرح يسيطر على حياتها كلّه ويتركها مذهولة. ثم عادت إلى الواقع.. هذا لا يكفي!

سحبت يديها بلطف ووقفت.. إنها الآن أقوى وأكثر ثباتاً. إنها تصدّق إنه لم يحب فيونا أبداً لكن طفلتهما بحاجة للحب، وهي كذلك!

نظرت إليه بثبات، فرأته متوتراً. لكنها أبت أن يؤثر ذلك عليها، لطالما أحبته وستحبه دائماً.. لكنها لن تستطيع العيش معه، وهي تعرف أنه لن يبادلها الحب. لن تسمح لنفسها أن تستغل مرة أخرى، كما استغلت من قبل.

قالت بسرعة: «لا، هناك أمور كثيرة ناقصة!».

واستدارت عنه. كان قد وضع الديك الرومي، قبل نزولها من الغرفة في غلاف معدني رقيق، استعداداً لوضعه في الفرن، ودهن الصدر بالزبدة.. وضعت الطير في الفرن، وهي تشعر بعينيها تحرقانها من الدموع التي لم تذرفها. إنها قادرة على التفكير المنطقي الآن، والقيام بما هو صواب.

استقامت، وأحست بيديه على كتفيها فأجبرت نفسها على أن تبقى متصلبة، لا تلين.. إنها قادرة على هذا، وتعرف ذلك.

أدارها ببطء، فقالت بصوت متخشب: «أعتقد أنّ علينا أن نجعل

الأمور طبيعية قدر المستطاع.. ولأجل هذا اليوم فقط».

هزها بلطف وعيناه تلمعان في عينيها، وأنفاسه خفيفة سريعة: «أوضحي أكثر!».

أغمضت عينيها لوقت قصير، وحاولت جمع أفكارها المشتتة.. رفضه أصعب ما يمكن أن تفعله يوماً، لكنه التصرّف المناسب.

ـ من المؤسف إضاعة مثل هذا الطعام الجيد سدى، يجب أن نأكله!

هبطت يداه بعيداً عنها: «لا تبدّلي الموضوع يا ماتي، تعرفين ما أعني. قولي لي ما الّذي تعتبرينه ناقصاً، ولم يكن موجوداً من قبل».

التقت عيناها بعناد بعينيه، ثم انخفضتا، وأخذت نفساً عميقاً. إنه يستحق أن يعرف مشاعرها بالضبط. وهذا ما قد يحدد علاقتهما.. وسيقدر لها هذا.

وهذا يعني أن يعرف أنها تحبه، ولسوف يشعر بالأسى عليها.. لكنها تعلمت كيف تتعامل مع الكثير من الأمور، وتستطيع أن تتحمل شفقته.

هزت كتفيها قليلاً: «حسناً.. سأقول لك ما هو ناقص! تحمّلني فقط».

أحست أنها أصبحت مسنة ومتعبة، تعيسة مستنزفة، وهي تتوجّه نحو المغسلة، وتملأ غلاية الماء وتضعها في قابس الكهرباء. إنها تحتاج إلى المزيد من القهوة القوية الساخنة لتبقي يديها مشغولتين، مما قد يساعدها على إكمال هذا.. وذكّرته بحزن: «قلت إنك طلبت يد فيونا بعقلك، وأستطيع أن أفهم هذا.. لم تستطع إلزام نفسك عاطفياً بسبب طريقة تربيتك، ولا بد أنك تعلمت في وقت مبكر من حياتك أن حب شخص ما يتسبب بألم الهجر.. لذا برمجت حياتك على أن تكون

خالية من المشاعر».

لم يقل شيئاً يعارض كلامها. أحضرت كوبين من الخزانة، وسكبت القهوة الجاهزة.

- ولأنك رجل طيب شريف، كنت مصمماً على ألاّ ترزق أولاداً، بسبب الطريقة التي..

وتلعثمت.. وابتلعت غصتها، ثم تابعت: «حين اقترحت عليّ الزواج، أعترف أنني فكرت أن هذه مسرحية للانتقام من فيونا بسبب نبذها لك علناً، حين..».

وأخذت نفساً حاداً متمنيّة لو لم تبدأ هذا.

- حين قلت إنك تريد أن يصبح زواجنا حقيقياً..

يا إلهي، كم هذا بارد.

- .. تساءلت عما إذا كنت تستخدمني لنسيانها.. لكن الأمر لم يكن هكذا، أليس كذلك؟.. أنت لم تحبها أبداً، كما ظننت! لأنك لا تستطيع. وحين طلبت يدي، كان هذا من عقلك.

قاطعها بنعومة: «لا يا ماتي!».

كان الآن خلفها مباشرة والماء يغلي في الإبريق، ومد يده ينتزع القابس من الكهرباء.

- لقد كنت دائماً في قلبي! وجود مهدىء، بريئة، واثقة بالناس، ومرحة من دون وعي منك، ومحبية. وحين طلبت يدك، فعلت لأنني احتجت إلى كل ما أنت عليه في حياتي. انظري إليّ ماتي.. وصدقي ما أقول.

كانت بالكاد تجرؤ على التنفس، وعلى التفكير. ولئلا تسمح لقلبها ومشاعرها بالسيطرة على الموقف، استدارت على مضض.. إنه يحتاج إلى حلق ذقنه.. كانت الظلال الداكنة على فكه، تجعله مثيراً

بشكل خطير. وفكرت بهذا بالجزء الآخر من دماغها الذي أخذ يتحول إلى فتات.

أحاط وجهها بحنان بين يديه: «كان من المفترض أن يكون زواجنا زواج مصلحة. صديقان، يعرفان ويحبان ويحترمان بعضهما، ويكدحان معاً لمصلحة مشتركة. ولهذا السبب استبعدت موضوع إنجاب الأولاد.. وكل ما أعرفه هو أنك أردت نصف دزينة من الأولاد.. في حين كنت قد انتهيت من النساء والعلاقات التي لا معنى لها.. لكني وصلت إلى مرحلة لم أستطع النظر فيها إليك من دون أن أرغب في ضمك إليّ.. كنت جميلة، وأنا مغرور بنفسي».

وازداد سواد عينيه بإدانة ذاتية: «كنت الرجل الذي لديه كل شيء. لكن ما إن تركتني، حتى أدركت ما حدث! لقد أحببتك حباً عميقاً ومطلقاً، ولأول مرة في حياتي أعطيت قلبي، من دون تحفظ. وأنت ملأته. ولم أستطع تحمل فكرة العيش بقية حياتي من دونك».

كان يتلمس بأصابعه خط خدها ولم يساورها شك بصدق كلماته. وغمرتها موجة كبيرة من السعادة، تركتها ضعيفة مرتجفة، غير قادرة على الكلام أبداً.. ولم تستطع سوى أن ترفع عينين ذهبيتين لامعتين إلى عينيه ليقول أخيراً: «إذا كنت تريدين الطلاق حقاً، يمكنك أن تحصلي عليه. لكن لو عدت إليّ، سأحبك أكثر من أيّ امرأة أحببتها من قبل، أعدك بهذا».

سألت: «وكلوي أيضاً؟».

وانتظرت ردّه وقلبها ينبض بقوة: «سيكون لكما في حياتي كل الحب الذي أقدر عليه.. هل يمكن أن نبدأ من جديد يا ماتي، أرجوك؟».

لم تكن قد رأته من قبل بهذا الضعف.. وكاد ضعفه يحطم فؤادها

الّذي يرقص فرحاً..

وهمست بصوت أجش: «طبعاً نستطيع!».

ثم ضحكت بهستيريا. وتصاعد عويل الطفلة الحاد عبر جهاز الإنذار، ليكسر سحر تلك اللحظة.

تأوه آهة مخنوقة، وضمها إليه. لكنه حين تركها كان يضحك: «أعتقد أن هذا ما يعنيه أن يكون المرء أباً! ابقي حيث أنت، سأحضرها! ثم سأقول لك كم جعلتني سعيداً!».

وقفز نحو الباب، فلحقت به تناديه، وهو يقفز صعوداً على السلم الملتوي.

ـ جايمس، أحبك! ولطالما أحببتك!

تلاشت كل الشكوك الّتي ساورتها حول حبه لطفلته، وهي تراقبه ينزل السلم بحذر، ضاماً كلوي إلى صدره. كان يضع رأسها الصغير تحت ذقنه وابتسامة الفخر تنير سماء منتصف الليل.

قال بنعومة وهو يعطيها اللفافة الثمينة: «لا أستطيع إطعامها، لكنني أستطيع أن أحضر لك الأغراض التي تلزمك.. ماتي أخبريني، هل عنيت ما قلته لتوك؟ هل تحبينني؟».

لامست بيدها خده، فأحست بوخز في أصابعها: «أنت تحتاج إلى حلاقة!».

لم يكن في النظرة التي رمقته بها أي خجل وهي تكمل: «بالطبع أحبك! وكيف لا أفعل؟ لقد أحببتك لسنوات!».

فقال ببساطة: «شكراً لك».

وانحنى يقبلها ويقبل الطفلة التي ترضع منها..

ـ شكراً على هذا!

كان يدللها وطفلتهما، ثم توارى عن ناظريها متجهاً نحو الطابق

الأعلى، ليظهر بعدها وقد صبغت الحمرة وجنته.

ـ لقد جئت بهذه!

كان المهد مليئاً بالحفاظات التي استطاع الوصول إليها.

ـ لم لا تنام معنا، فنحتفل سوياً بليلة الميلاد؟ يمكن أن أريها الشجرة، أغيّر لها حفاظها، بينما تحضرين أنت الديك الرومي.. يجب أن أتعلم، أليس كذلك؟

لم تستطع ماتي أن تتوقف عن الابتسام وهي تعطيه الصغيرة: «إنها لك!».

تجشأت الطفلة على كتفه، ونظرت إلى أبيها بعينيها الزرقاوين.

تحركت ماتي في المطبخ وهي تكاد تطير فرحاً. جايمس يحبها، ويحب ابنتهما الصغيرة! لم تشعر يوماً بهذه السعادة!

كانت النار مشتعلة في الموقد، والكريات اللامعة فوق الشجرة تعكس آخر ألسنة اللهب المتراقصة.. أما كلوي فغارقة في نوم عميق، وشفتاها الورديتان مكورتان.

التصقت ماتي بجايمس وقد أسكرها الحب.. تشرف هذه الليلة، على نهايتها، لكن سحرها سيبقى أبداً في قلبيهما، إلى أن يصبحا عجوزين.. وسألته والنعاس يداعب جفنيها: «جايمس، الكوخ لنا، فماذا سنفعل به؟».

كم كانت سخيفة إذ خافت من المغلف البني البسيط.. وعلمت أن رده سيكون مرضياً.

ـ أنت تعرفينني، أخطط لكل الاحتمالات.

مرر إصبعاً على أنفها الرائع: «لو لم تعد المياه إلى مجاريها بيننا، لكان لك بيت آمن. لكن، بما أنك عدت لي، فقد فكرت في أن نبني غرفاً خلفه.. ولين يكون هناك أي مشكلة في رخصة البناء، لقد تأكدت

من ذلك! كما نقلت السيدة بريغز إلى هنا كمدبرة منزل دائمة».

صمت قليلاً، ثم أكمل: «لقد سألتها، فوافقت. يمكن أن نمضي عطل نهاية الأسبوع هنا، متى أردنا، وستنعم كلوي بالحرية حين تكبر. سنجد مدبرة منزل أصغر سناً وأكثر قدرة لبيتنا في لندن.. امرأة تساعدك في أي حفلة نحتاج إلى إقامتها، وتساعدك كذلك في رعاية الطفلة.. لن أدعك تجهدين نفسك، فأمامنا حياة طويلة نعيشها».

كتمت تثاؤباً: «حياة ملؤها الحب. أليس كذلك؟».

ـ نعم، أنت على حق! أما الآن، فقد حان وقت النوم يا سيدة كارتر.

وقف يمسك يديها لتقف على قدميها، ثم ضمها بين ذراعيه.. وقال بصوت مليء بالحب: «سأضمك طوال الليل. إذا جاعت الآنسة الصغيرة واستيقظت، سأحملها إليك، وأغير لها حفاظها كما سأجلب لك الفطور إلى السرير في الصباح. فما رأيك بهذا؟».

وضعت رأسها فوق صدره ولفت ذراعيها حول عنقه: «سيكون نعمة من السماء.. نعمة مكتملة لا حدود لها!».

***